

سيرة
أمير المؤمنين (ع)

عبد الزهراء عثمان محمد

المؤلف الذي يحاز على الجائزة الأولى
عن كتاب فارسية بنت محمد

مؤسسة الفكر الإسلامي



0019877



Bibliotheca Alexandrina

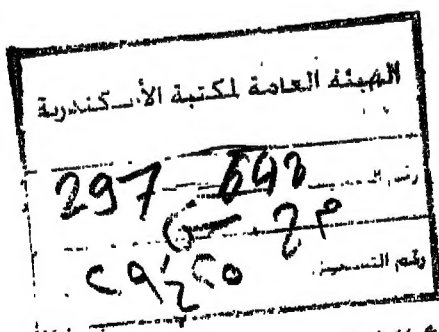




سيرة أمير المؤمنين^(ع)

سيرة أمير المؤمنين (ع)

عبد الزهراء عثمان محمد



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque Alexandrine

مؤسسة الفكر الإسلامي
للثقافة والأفكار

المكتبة المفتوحة محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م



حارة حريك - بئر العبد - خلف البنك اللبناني الفرنسي - ٨٢١٢٧٤
ص. ب : ٥٩٥٣ / ١٣ شوران - بيروت - لبنان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

«ما لقي أحد في هذه الأمة ما لقيت...»^(١).

الإمام علي (ع)

لم يلاق، عظيم في التاريخ البشري، ما لاقاه علي بن أبي طالب (ع)، من ظلم وأثرة في حياته وبعد موته...

فإذا كان قد عانى الكثير في حياته، المليئة بالمآثر والأمجاد، فإن الظلم قد استبد به، فحرم من أبسط الحقوق وهي: كتابة تاريخية، بإنصاف وصدق، بعد وفاته، ولفترة طويلة.

فبعد رحيل الإمام إلى الرفيق الأعلى، أخضعت أجيال الأمة الإسلامية، لعملية مسح دماغي، ليس لها مثيل، كي تنسى علياً (ع)، ودوره الإيجابي الفعال، في دفع حركة الإسلام التاريخية، نحو العزة والمجد... أو لتأخذه في إطار مشوه ممسوخ!!

وحسبك، بأن عشرات من السنين، قد سخرت فيها

(١) أنساب الأشراف / للبلاذري ج ٢ ص ١٧٧.

المنابر- وهي أعظم الأجهزة التربوية والإعلامية لدى المسلمين يومذاك- في سب علي (ع) وتوشيه تاريخه الفذ... حقدراً على الإسلام، وثأراً لمشركي بدر..

فكانت «خطبة الجمعة» مثلاً في العهد الأموي، تفتح بالنيل من الإمام (ع)، بكلمات يأبى التاريخ أن تسطر على صفحاته^(١) وكانت تسند تلك العملية قوى، وأجهزة حكم، ورواة ومحدثون مأجورون، ومؤرخون للسلطين، و... و... محاولة طمس معالم تاريخ الإمام علي (ع)...

بيد أن تاريخ الإمام علي (ع)، وإن كان تعرض لذلك اللون المخجل، والطمس والتزوير، والتجهيل... فإن أحداً، كائناً من كان، ليس بمقدوره أن يطمس معالمه الأساسية. لارتباطها العضوي بالإسلام الحنيف ومجده... فجل الكذب قصير... ولا يحق المكر السيء إلا بأهله.

وهكذا، فإن الأقلام المأجورة، وتشكيلة المرتزقة، التي حاولت أن تكتب لعل تاريخاً على هواها، ووفقاً لمصالحها، وما تملك من خلفيات ومرامي منمنصة، قد أخطأت التقدير، وجهلت أن الحق لا يمكن أن يحجب طويلاً، وأن الزبد لا بد أن يذهب جفاء...

وشعوراً منا بالمسؤولية الشرعية في توعية الأمة، وتبصيرها بحقائق دينها ووقائع تاريخها المجيد، ونفض تراب التعمية والتضليل عن حقائق أحداث المسيرة التاريخية لهذه الأمة منذ بدايات تاريخها... شعوراً منا بهذه المسؤولية العظيمة نضع هذه الدراسة

(١) راجع نماذج من ذلك في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٦١ وما بعدها ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩.

حول سيرة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ودوره في حركة الإسلام التاريخية بين أيدي المسلمين..

وللضرورة الفنية قسمت هذه الدراسة إلى أقسام ثلاثة:

ستتناول في القسم الأول منها سيرة أمير المؤمنين (ع)، في عهد رسول الله (ص)، وعهد الخلفاء الذين سبقوه تاريخياً في قيادة المسلمين.

وفي القسم الثاني: ينصب البحث على دراسة حياة الإمام (ع)، أيام توليه (خلافة) المسلمين، ومواقفه البطولية النسلية، في مجالات السياسة، والإدارة، والاقتصاد، والاجتماع، وشؤون الحرب والسلام وأمثال ذلك.

أما القسم الثالث: فيتخصص في إبراز الملامح الأساسية لشخصية أمير المؤمنين (ع) من حيث علاقته بالله تعالى، وعلاقته بالناس من حوله، وعطائه العقائدي، والعلمي، والفكري، الذي أسداه للأمة الإسلامية والناس أجمعين.

والله نسأل التسديد والتأييد، والهداية والتوفيق للعمل من أجل تكريس كل الطاقات، والإمكانات المتاحة في إطار الصراع الفكري القائم، بين أمتنا الإسلامية المجاهدة، وبين خصومها الألداء، حتى تسرد شريعة الإسلام العظيم.. إنه سميع مجيب.

المؤلف

١٩٩١/١/١ م

القسم الأول

وليّد البيت الحقيق

بِزَوْجِ الْفَجْرِ

في يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر رجب المبارك، وقبل بعثة محمد رسول الله (ص) بأثنتي عشرة سنة، اشتد المخاض على فاطمة بنت أسد، فجاء بها أبو طالب إلى الكعبة المشرفة، وأدخلها فيها ثم قال لها إجلسي... وخرج عنها فرفعت يدي الضراعة إلى العلي الأعلى سبحانه قائلة: «ربي إني مؤمنة بك، وبما جاء من عندك من رسل وكتب وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل (ع) فإنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت والمولود الذي في بطني إلا ما يسرت عليّ ولادتي»^(١).

ولم يمض على فاطمة غير ساعة حتى أعلنت أنها قد ولدت ذكراً، وهو أول مولود ولد في الكعبة المشرفة ولم يولد فيها بعده سواء تعظيماً له من الله سبحانه وإجلالاً^(٢)، وأسرع البشير إلى أبي طالب

(١) كشف الغمة ج ١ - فصل ذكر الإمام علي (ع).

(٢) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٤٨٣ والكفاية للمحافظ الكنجي الشافعي وشرح الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ص ١٥ ونور الأبصار للشبلنجي ص ٧٦ ومطالب السؤل ص ١١ لمحمد أبي طلحة الشافعي =

وأهل بيته، فأقبلوا مسرعين والبشر يعلو وجوههم..

وتقدم من بينهم محمد^(١) ص فضمه إلى صدره وحمله إلى بيت أبي طالب، حيث كان الرسول في تلك الآونة، يعيش مع خديجة، في دارهما منذ زواجه منها.

وانقذ في ذهن أبي طالب، أن يسمي وليده «علياً» وهكذا كان..

وأقام أبو طالب وليمة، على شرف الوليد المبارك، ونحر الكثير من الأنعام^(٢).

وقد حضر وليمته جمع حاشد من الناس: قدموا التهاني، وعاشوا ساعات من البهجة، أبدوا فيها مشاعرهم الفياضة، وأحاسيسهم السامية، نحو عميدهم شيخ الأبطح، ووليدته المبارك..

ومرت الأيام سريعة، والوليد المبارك يتقلب بين أحضان والديه: أبي طالب، وفاطمة، وابن عمه محمد (ص)، الذي كان دائم التردد على دار عمه، التي ذاق فيها دفء المودة، وشرب من ينابيع الإخلاص والوفاء الصافية، خلال سنوات صباه وشبابه.

أجل كان محمد (ص) يتردد كثيراً على دار عمه، بالرغم من زواجه من خديجة، وعيشه معها في دار منفردة، وكان يشمل علياً بعواطفه، ويحوطه بعنايته) - يناغيه في يقظته، ويحمله على صدره.. ويحرك مهده عند نومه، إلى غير ذلك من مظاهر العناية والرعاية..

= والمناقب للأمير محمد صالح الترمذي. نقلاً عن الغدير ج ٦ من ٢٢ إلى ٣٨ لعبد الحسين الأميني ط ٣ سنة ١٩٦٧ بيروت.

(١) الفصول المهمة في معرفة الأئمة / لابن الصباغ المالكي / الفصل الأول ص ١٣.

(٢) البحار ج ٣٥ ص ١٨.

في كفالة رسول الله (ص):

وبعد مضي ست سنوات على ولادة علي (ع) تعرضت قریش لأزمة اقتصادية خانقة، وقد كانت وطأتها شديدة على أبي طالب، إذ كان رجلاً ذا عيال كثيرة، وكهف يلوذ به المحتاج والفقير، بحكم مركزه الاجتماعي في مكة... أيرضى المصطفى (ص) وبنو هاشم، أن تقسو الحياة على عميدهم؟

أقبل الرسول (ص) على عمه العباس بن عبد المطلب، وهو أترى بني هاشم يومها، فخاطبه بقوله: «... يا عم، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله، فتأخذ أنت رجلاً واحداً، وأخذ أنا رجلاً فنكفلهما عنه...»^(١).

وحظي رأي المصطفى (ص) بالتأييد والرضاء من لدن عمه العباس، فأسرعا إلى أبي طالب، وخاطباه بالأمر، فاستجاب لما عرضا قائلاً: «إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً، فاصنعا ما شئتما...»^(٢).

فأخذ العباس جعفرأ...

وأخذ رسول الله (ص) علياً (ع)، وكان عمره يومئذ ستة أعوام^(٣)، وقد قال (ص) بعد أن اختار علياً (ع): قد اخترت من

(١) الفصول المهمة / لابن الصباغ الفصل الأول ص ١٤ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ص ١٥١.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ باب ذكر أن علي بن أبي طالب أول ذكر أسلم ص ٢٨٤، وبحار الأنوار ج ٣٥ ص ٤٤ وشرح النهج ج ١ ص ١٥.

(٣) في رحاب علي / خالد محمد ص ٤٦ ط / ٢ دار الأندلس بيروت وشرح النهج ج ١ ص ١٥١.

اختاره الله لي عليكم - علياً^(١).

يشكدا عاش علي (ع) منذ نعومة أظفاره في كف محمد (ص) :
نشأ تحت رعايته، وشرب من ينابيع مودته وحنانه، ورباه وفقاً لما علمه
بـه تعالى، ولم يفارقه منذ ذلك التاريخ، حتى لحق الرسول (ص)
بـه إلى علي . .

عبد الله الأحماد النبوي:

أثناء الإمام علي (ع) إلى أبعاء التربية التي حظي بهما من لدن
الرسول (ص)، وبعدها وعمتها، وذلك في خطبته المعروفة
بالحمدية، إذ جاء فيها ما نصه: «وقد علمتم موضعي من رسول الله
صلى الله عليه وآله، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في
حجره، وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكفني في فراشه، ويضمني
جسده، ويشمني عرقه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي
كذبه في قول، ولا خطلة في فعل.

«ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله، من لدن إن كان فطيماً،
أعظم ملك من ملائكته؛ يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق
العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي
في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به».

«ولقد كان يجاور في كل سنة (بحراء) فأراه ولا يراه غيري، ولم
يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام، غير رسول الله - صلى الله عليه
وآله - وخديجة، وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح
النبوة. .»^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٥ نقلاً عن البلاذري والأصفهاني .

(٢) نهج البلاغة تبويب صبحي السالحي ط ١٩٧١ ص ٣٠٠ .

والذي يستقري هذا النص، يامعان، يتجلى له أن علياً (ع) قد حظي برعاية الرسول (ص) وحده، وإيثاره أيام طفولته، فكان يمزج الشيء ثم يضعه في فمه، ويضعه في حجره، ويضمه إلى صدره، ويعامله كما لو كان ولده الحبيب...

أما في صباه، وشبابه، فقد أنصب جهاد رسول الله (ص) على تكوين شخصيته: إذ كان يأمره بالإقتداء به، وسلوك سبيله، وغير كل يوم يرفع له من أخلاقه علماً وعليّ كان يتبع أثره، أولاً بأول. كما يصف ذلك في حديثه.

ولهذا وذاك، فإن من خطئ الرأي، أن لا يعتقد إماماً في مسألة اختيار علي (ع) من لدن الرسول (ص) كانت هادفة لشكك في يأتي صورة لرسول الله (ص) في فكره ومواقفه وشئى ألوانه، بل حتى في مشيئته^(١).

فلقد كان الإمام (ع) من الصفا الروحي، والاستقامة الخلقية، وفقاً لما علمه رسول الله (ص) بحيث كانت تتكاتف له الكثير من حجب المستقبل المستور، فهذا هو يقول: «ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزول الوحي عليه، صلوات الله عليه، نقلت يا رسول الله ما هذه الرنة فقال: هذا الشيطان قد آيس من عبادتي، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي، ونحنك وزينر، وإنك اهل خير...»^(٢).

فإن الشوط الذي قطعه في مضى التقرب إلى الله، وامتثال أوامره، وتجسيد متطلبات ربه، رشحته لكونه نبياً ورسولاً.

(١) علي بن أبي طالب عبد الفتاح شيبه، نسخة من تاريخ ١٠٣٩.

(٢) نهج البلاغة ص ٣٠١ (المخطوطة القزوينية، نسخة من مكتبة جامعة طهران).

للنبوة، وهو مقام، لا يناله إلا من قطع شوطاً بعيداً، باتجاه قمة الفضيلة والتقوى، فلم يفصله عن الرسول (ص) إلا درجة النبوة، فارتقى منصة الوزارة بحق وجدارة، وهكذا كان علي . . .

«في كنف الوحي»

وإذا كان الإمام (ع) قد عاش ست سنوات، في أحضان والديه وإخوته، وكان لرسول الله (ص) دور بارز في رعايته، طوال تلك السنوات الندية من عمره (ع). فإن رعاية علي وتربيته، صارت من اختصاص المصطفى (ص) دون منازع، منذ السنة السادسة، حيث انتقل (ع) إلى داره (ع) على أثر الضائقة المالية التي ألتمت بأبيه أبي طالب، كما ذكرنا.

ومنذ تلك السن المبكرة عاش علي (ع) مع رسوله الله (ص) في بيته قبل الدعوة، حيث قضى تحت رعايته سنوات الصبا وسنوات التفتح على الحياة، وخلالها عاش الإمام (ع) كل التطورات التي اكتنفت حياة الرسول (ص) . .

فعلي لم يحظ بالتربية المألوفة، التي يحظى بها غالباً طفل من لدن أبيه، أو صغير من لدن أخيه الأكبر، وإنما كان أعدداه وتربيته من نوع خاص، وحسبك أنه كان يتبع محمداً (ص) حتى في ساعات اختلاطه في غار حراء . . ويشهد التطور الروحي والفكري الذي كان رسول الله (ص) يمر فيه، وما هو (ع) يستذكر تلك الأيام الخالدة وذلك الشطر الحساس من حياته، فيقول: « . . . ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري »^(١) - كما ألمحنا إلى ذلك - أجل كان (ع) يعيش التحول الروحي الهائل، الذي شهدته نفس

(١) الخطبة القاصعة من نهج البلاغة ص ٣٠١ تبويب د. صبحي الصالح.

المصطفى (ص)، حتى أشرق عليه وحي السماء المبارك.

ولقد كان للمستوى الروحي والخلقي البعيد المدى الذي سمت إليه نفس علي (ع)، أن شعر بالتحول الكبير، الذي جرى في عالم الغيب، من انهزام للشيطان، بعد يأسه من أن يُعبد، فور بعثة الرسالة الخاتمة... فلقد شهد علي إرهابات النبوة التي شهدتها أستاذة ومعلمه الرسول (ص)، وعاشها كما عاشها بملء كيانه، حين سطع الهدى، وتلقى رسول الله (ص) أول بيان من السماء، لتكليفه بحمل الرسالة.

﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

(العلق ١ - ٥)

أول المؤمنين

حين تلقى الرسول (ص) بيان التكليف الإلهي، بحمل الرسالة، عاد إلى بيته فأطلع علياً^(١) (ع)، بأمره فاستقبله (ع) بالتصديق واليقين، كذلك فعلت خديجة الكبرى، فانبثق من أجل ذلك أول نواة لمجتمع المتقين في الأرض.

على أن يجدر بنا، أن نعي أن علياً (ع) لم يدعه الرسول (ص) إلى الإسلام كما دعا غيره فيما بعد، أبدأً، لأن علياً (ع) كان مسلماً على فطرة الله تعالى، لم تصبه الجاهلية بأوضاعها، ولم يتفاعل مع شيء من سفاسفها، وكل الذي كان: أن علياً (ع) قد أطلعه الرسول القائد (ص) على أمر دعوته ومنهج رسالته، فأعلن تصديقه وأيقن بالرسالة الخاتمة، وبادر لتلقي توجيهاته المباركة تلقي تنفيذ وتجسيد..

(١) إضافة إلى كتب التاريخ التي تصرح بأن علياً أول الناس إسلاماً فهناك عدة أحاديث عن رسول الله (ص) تجسد هذه الحقيقة راجع المستدرک ج ٣ ص ١٣٦ والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ ومناقب الخوارزمي وحلية الأولياء ج ١ ص ٦٦ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٨٥ وسيرة زيني دحلان في هامش الحلبية ج ١ ص ١٨٨: نقلاً عن الغدير ج ٣ ص ٢٢-٢٤٢ ط ٣ / ١٩٦٧ بيروت.

ولهذا يقال (كرم الله وجهه).

فإن علياً (ع) كان مؤهلاً - كما بينا في مطلع الحديث - لإتباع رسول الله (ص) في دعوته، لأنه (ص) كان قد أنشأ شخصيته، وأرسى لبناتها الأساسية.

ولا أظنني أضيف جديداً إذا قلت أن الإمام (ع) لم يفاجأ بأمر الدعوة المباركة، طالما عاش في كنف رسول الله (ص) وتفيأ ظلاله، فالمصطفى (ص) - كما نعلم - كان يعبد ربه تعالى وينأى عن الجاهلية في مفاهيمه وسلوكه وعلاقاته، قبل أن ينزل عليه وحي السماء، بأول سورة من القرآن الكريم^(١).

وعلي (ع) كان مطلعاً على عبادة أخيه رسول الله (ص) وممارساته وتحولاته الروحية والفكرية، فكان يتعبد معه، وينهج نهجه، ويسلك سبيله، في ذلك السن المبكر من عمره..

أما حين فاتحه رسول الله (ص) بأمر الدعوة الإلهية، فقد لبي النداء بروحه ووعيه وكل جوارحه، دون أن يباغت في الأمر، وإن كان هناك جدة في المسألة، فإنما هي في الكيفية التطبيقية للرسالة ودرجة المسؤولية الواجب تحملها أو تفاصيل الأحكام.. وحين بلغ رسول الله (ص) بأمر التكليف الإلهي لحمل الدعوة المباركة، بلغ كذلك، أن تنصب دعوته أولاً على الخاصة من أهل بيته (ع)، وقد أشار ابن هشام في سيرته لذلك بقوله: «فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر ما أنعم الله عليه، وعلى العباد به، من النبوة سرّاً إلى من يطمئن إليه من أهله..»^(٢). ومن أجل ذلك فاتح علياً

(١) يراجع كتابنا / سيرة المصطفى (ص) ط بيروت.

(٢) ج ١ ص ٢٥٩ مصطفى الحلي وأولاده بمصر ١٩٣٦ تحقيق مصطفى السقا وجماعة.

وخديجة بالدعوة - كما ذكرنا - وبعدهما زيد بن حارثة، وبقي أمرها طي الكتمان لا يعلمه غير هؤلاء، وبعض الخاصة من أهل البيت (ع).

وقد أشار الإمام علي بن الحسين (ع) في حديث له حول إسلام جده علي بن أبي طالب (ع) بقوله: «...» ولقد آمن بالله تبارك وتعالى وبرسوله (ص) وسبق الناس كلهم إلى الإيمان بالله وبرسوله وإلى الصلاة ثلاث سنين^(١).

ولأسبقيته في حمل الدعوة أشار الإمام (ع) في حديث جاء فيه «...» ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة...».

وبعد أن تخطت الدعوة مرحلة دعوة الخاصة من أهل البيت (ع) جاءت مرحلة دعوة من يتوسم رسول الله (ص) فيهم القبول لدعوته، فانخرط عدد من الناس في سلك الدعوة، كان أغلبهم من الشباب، وكانت لقاءاتهم من أجل قراءة القرآن الكريم، والتعرف على أحكام دين الله تعالى تتم بصورة سرية..

أول الدعوة:

ثم أذن الله عز وجل لرسول (ص) بدعوة عشيرته الأقربين من

(١) الروضة من كتاب الكافي ج ٨ حديث إسلام علي (ع) وهناك أحاديث بهذا الصدد يرويها كل من النسائي وابن ماجة والحاكم والطبري في تاريخه والرياض النضرة ج ٢ ص ١٥٨ وكتاب صفين لنصر بن مزاحم ص ١٠٠ وغيرها راجع ٢٢١ - ٢٤٠ ج ٣ من الغدير، على أن تلك الروايات تشير إلى أن إيمان علي وعبادته قد سبق فيها الناس بسبع أو تسع سنين، وهي لا تخالف القول بثلاث سنين أبداً فإن المراد بأنه سبق بالتصديق بالإسلام بعد الدعوة بثلاث سنين وسبق سواء بالإيمان والتعبد مع الرسول (ص) في مرحلة الأعداد التي أشار إليها في خطبة القاصعة بسنوات أخرى..

بني هاشم، ليوسع من مدار الدعوة بذلك، فقال تعالى:

﴿... وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(الشعراء / ٢١٤ - ٢١٦)

فلما تلقى رسول الله (ص) أمر ربه الأعلى بإنذار عشيرته الأقربين، أمر علياً (ع) أن يدعوهم إلى طعام عنده، فحضروا إلى دار رسول الله (ص) وكانوا أربعين رجلاً.

وبعد أن تناولوا طعامهم، بادرهم الرسول (ص) بقوله «... يا بني عبد المطلب، أن الله بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة، فقال: «وأندر عشيرتك الأقربين» وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان، تملكون بهما العرب والعجم، وتنقذ لكم بهما الأمم وتدخلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار، شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه، وعلى القيام به يكن أخي ووصيي ووزير ووارثي وخليفتي من بعدي...»^(١).

وبين تنديد أبي لهب، وتحذيره للرسول (ص) من الاستمرار

(١) أخرج الحديث كل من: ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في سننه وفي دلائله، والشملي، والطبري في تفسيرهما لسورة الشعراء من تفسيريهما الكبيرين، وأخرجه الطبري في تاريخ السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٨١، والطحاوي، والضياء المقدسي في مخشاه، وأحمد بن حنبل ج ١ ص ١١١ وص ١٥٩، والنسائي في خصائصه ص ٦، وكتر العمال ج ٦ الحديث رقم ٦٠٠٨، والمفيد في إرشاده في مناقب علي (ع) وغير هؤلاء كثير وكلهم أوردوه بالفاظ متقاربة نقلاً عن المراجعات للسيد شرف الدين ص ١٢٤ وما بعدها.

بالدعوة من جهة، وتأييد أبي طالب له ومخاطبته الرسول (ص) بقوله: «فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك»^(١).

أقول من خلال التأييد، الذي أعلنه أبو طالب، والتنديد البليد الذي أعلنه أبو لهب، وقف علي بن أبي طالب (ع) وكان أصغر الحاضرين سنّاً فقال: «أنا يا رسول الله أوازرك على هذا الأمر» فأمره الرسول (ص) بالجلوس، ولما لم يجبه أحد نهض علي ثانية والرسول (ص) يجلسه..

وأعاد الرسول (ص) دعوته إلى قومه، فلم يجبه أحد، وكان صوت علي (ع) وحده يلبي الدعوة، ويهدر بالمؤازرة والنصرة، فمزق صمتهم بصلابة إيمانه، وقوة يقينه، وحيث لم يجب رسول الله (ص) أحد للمرة الثالثة.. التفت إلى مجيئه الوحيد، قائلاً: «اجلس فأنت أخي ووصيي ووزير ووارثي وخليفتي من بعدي»^(٢).

فنهض القوم من مجلسهم، وهم يخاطبون أبا طالب: «ليهنك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك، فقد جعل ابنك أميراً عليك»^(٣).

مواجهة الجاهليين:

ودخلت الدعوة إلى الله مرحلة المواجهة - بعد إنذار العشيرة - وأول من قاد ردّ الفعل أبو لهب وزوجته، وكانا يعترضان رسول الله (ص) ويزرعان المشاق في طريقه، لإثناؤه عن دعوته المباركة ولكن دعوة الله سبحانه مضت، تشق طريقها في المجتمع الجاهلي

(١) صور من حياة محمد / أمين دويدار ص ١٤٠، وفقه السيرة / للفضالي ص ١٠٢-١٠٣، يراجع الهامش أعلاه.

(٢-٣) صور من حياة محمد / أمين دويدار ص ١٤٠، وفقه السيرة / للفضالي ص ١٠٢-١٠٣، يراجع هامش رقم (١) ص ٢٢ من هذا الكتاب.

المتحجر ذاك، فقد انتقلت بعد إبلاغ العشيرة إلى الدعوة العامة، حيث وقف رسول الله (ص) عند البيت الحرام، وخاطب الجموع بأنه رسول الله إليها^(١)..

وبعد الدعوة تزايد عدد المؤمنين وأغلبهم من الشباب ومن شتى قطاعات المجتمع المكي..

وكان لتزايد عدد المؤمنين برسالة الله تعالى أثر بالغ على موقف الجاهليين، فقد سلكوا أسلوب الإرهاب للزعيل الأول من المؤمنين، فكانت كل قبيلة وكل بيت يتصدى لمن فيه من المؤمنين بالتعذيب والإضطهاد^(٢)، والمؤمنون يزدادون صموداً وإيماناً بصوت الحق والهدى، الذي دوى به صوت رسول الله (ص) فرددته النفوس الظمأى إلى الخير والإنعتاق..

وبسبب التعذيب الجسدي الوحشي، الذي صب على المؤمنين، كانت هجرة الحبشة التي قادها جعفر بن أبي طالب والذي يكبر علياً (ع) بعشر سنين، وكان لجعفر وحكمته الأثر الفعال في إفشال مخطط قريش في إثارة ملك الحبشة على المهاجرين، لطردهم من بلاده^(٣).

أبو طالب يتصدى لاعداء الرسالة:

وإذا كانت قريش قد تصدت للسابقين من المؤمنين بالعنف والإضطهاد، فإنها ليست قادرة على التصدي لرسول الله (ص)، قائد الدعوة ورسولها، بنفس المستوى، لعلمها أن أبا طالب شيخ الأبطح،

(١) يراجع القسم الأول من كتاب سيرة المصطفى (ص) ط بيروت للمؤلف.

(٢) و (٣). - المصدر السابق - يراجع القسم الأول أيضاً.

يحول دون تحقيق أي لون من ألوان التصدي والإرهاب
لرسول الله (ص).

فأبو طالب، رجل مرهوب الجانب، ذو سطوة ونفوذ، ليس في
بني هاشم وحدهم، وإنما في قبائل مكة كلها.

وقد كان الرجل سند الدعوة وجدارها الشامخ، الذي تستند إليه
منذ تبشير فجرها الزاهر.. وقريش، كانت تدرك ذلك تماماً.

ومن أجل ذلك، سلكت أسلوب المفاوضة، والمساومة
والإغراء: تفاوض الدعوة والرسالة في شخص الرسول (ص) مرة، وفي
شخص أبي طالب مرة أخرى.. فحين كانت تعرض المال والسلطان
على رسول الله (ص)، مقابل تركه الدعوة، والتنازل عن الرسالة، فإنها
كانت تفاوض أبا طالب، وتحاوره بشأن دعوة الرسول (ص)، طالبة أن
يستعمل نفوذه، بالضغط عليه، لترك رسالته، وتهدهدته باحتدام الصراع
بينه وبين قريش كلها، إذا لم يخل بينهم وبين رسول الله (ص)،
ويكف عن إسناده له.

بيد أن أبا طالب، كان يعلن إصراره على التزام جانب
رسول الله (ص)، والدود عنه، مهما غلا الثمن، وعظمت التضحيات.

أبو طالب في الحصار مع رسول الله (ص):

ولما استبد اليأس بقريش، من أن أبا طالب لن يفرط
بمحمد (ص) ودعوته، عقد زعمائها اجتماعاً طارئاً في دار
الندوة - وهي دار قصي بن كلاب، التي اعتادت قريش أن تجتمع فيها
للتشاور في القضايا المصيرية من حياتها. وتوصل المجتمعون إلى
قرار، يقضي بحصار بني هاشم، ومن يلوذ بهم، حصاراً اقتصادياً
 واجتماعياً، ينصب على عدم مبايعة بني هاشم أو الشراء منهم، أو

تزويجهم، أو التزوج منهم، وقد ذيل قرار المقاطعة ذلك بأربعين
توقيعاً لزعماء قريش...

ودخل بنو هاشم شعب أبي طالب، بناء على أوامر من عميدهم
أبي طالب ذاته، حماية لأنفسهم من سطوة قريش، وأصبح من المعتذر
عليهم الخروج إلى مكة، إلا في موسم العمرة في رجب، وموسم
الحج في ذي الحجة من كل عام. وبالنظر لتفاقم الموقف بين بني
هاشم وقريش، شدد أبو طالب الحراسة على الشعب، بعد تحصينه،
خشية هجوم قريشي مباغت..

واستمر الحال ببني هاشم - بما فيهم رسول الله (ص) وعلي ابن
أبي طالب (ع) هكذا ثلاث سنين - وقيل أربعاً - وقد عانوا من شظف
العيش، والحرمان والفاقة، وما يدمي القلب، ويحز في النفس.

ولك أن تقدر حجم ما عانى المحاصرون من ضيق، إذا علمنا
أن قريشاً قد شددت عليهم الحصار بشكل كامل، فقطعت عنهم
التموين، وكانت غالباً ما تضاعف أثمان البضائع، ليعجز بنو هاشم عن
شرائها، بشكل أدى بهم إلى المجاعة الحقيقية، حتى أن صراخ
أطفالهم وتضورهم جوعاً كان يسمع من بعيد..

ويعد أن تصرمت السنون الثلاث، بعسرها وآلامها وفاقها، أخبر
رسول الله (ص) عمه أبا طالب أن صحيفة المقاطعة التي كتبها قريش
قد أتت دودة الأرض على ما فيها من ظلم وقطيعة فأكلتها، إلا عبارة
«باسمك اللهم» فأسرع أبو طالب إلى قريش، قائلاً:

«.. إن ابن أخي أخبرني أن الله قد سلط على صحيفتكم
الأرضة فأكلتها، غير اسم الله، فإن كان صادقاً نزعتم عنه سوء رأيكم،

وإن كان كاذباً دفعته إليكم ..»^(١).

قالوا: قد أنصفتنا .. ثم فتحوها، فإذا هي كما قال .. ووقع نزاع حاسم بين قریش، نتج عنه تمزيق الصحيفة، وانتهاء المقاطعة، ورفع الحصار عن بني هاشم، وقد كان لإفشال مشروع الحصار بذلك الشكل الإعجازي الجلي أثره في كسب الدعوة للمؤمنين، والأنصار في مكة ..

أرأيت كم من التضحيات في سبيل رسالة الله، بذل بيت علي (ع)؟

فإذا كان علي أول من لبي صوت الحق، وظل مجاهداً في الصف الأمامي من الجبهة الإسلامية طوال حياته، فإن أباه قد ضحى حتى بمكانته الاجتماعية التي كان يحظى بها من لدن قریش، وذاق المحن من أجل رسالة الله تعالى، حتى كان بحق الدرع السواقى للرسول (ص)، والدعوة في حين كانت المكانة الاجتماعية: حلم الرجال، ومبتغاهم في ذلك المجتمع القبلي ..

وهكذا كان جعفر بن أبي طالب، أخو علي (ع) الذي دشّن حياته الإسلامية بقيادة موكب الهجرة الأولى إلى الحبشة وتوجّها بالشهادة في غزوة مؤتة .. ففاز بلقب الطيار مع الملائكة في الجنة كما أخبر رسول الله (ص) بذلك^(٢) ..

(١) بحار الأنوار ج ١٩ باب دخول الشعب، طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٧٣، ١٩٢، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٩-٤٠٤ وعيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٥١، تاريخ ابن كثير ج ٣ ص ٨٤، ٩٦، ٩٧، السيرة الخلية ج ١ ص ٣٥٧-٣٦٧ الكامل لابن الأثير / ٢ ص ٣٦ .. نقلاً عن الغدير ج ٧ ص ٣٦٣-٣٦٦.

(٢) 'بحار الأنوار ج ٢١ باب غزوة مؤتة، ابن سعد في طبقاته ج ٤ ص ٢٣، وأسد الغابة ج ١ ص ٢٨٧، ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٤٠٧، البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٦ =

ولعظيم حب رسول الله (ص) لجعفر، إنه حين قدم المدينة المنورة من الحبشة، وذلك يوم فتح خيبر، استقبله الرسول (ص) وقبل ما بين عينيه، وهو يقول (ص): «ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً: بقدم جعفر؟ أم بفتح خيبر»^(١).

إلى دار الاسلام:

.. وفي خضم الصراع العنيف، الناشب بين الدعوة الإلهية المباركة، والجاهلية الرعناء، فجع الإسلام بفقد مؤمن قريش: أبي طالب (رض) فاهتز رسول الله (ص) للحادث الأليم، وعلم أن قريشاً ستعمل على تصعيد حملتها على الدعوة، وعلى شخصه الكريم بالذات..

وإذا كانت قريش تخش أبا طالب، ومركزه الاجتماعي، فيما مضى، فقد صفا لها الجو بعد موته، وها هو رسول الله (ص) يفقد سنده الشامخ، ويصاب بعده بفاجعة أخرى، لا تقل في تأثيرها عليه عن الأولى، فقد توفيت زوجته الوفية خديجة، حتى دعا العام الذي فقدهما فيه «عام الحزن».

وللأهمية البالغة، التي يحتلها أبو طالب، في سير الحركة التاريخية لدعوة الله تعالى، صرح رسول الله (ص) بقوله:
«ما زالت قريش كاعةً عني حتى مات أبو طالب»^(٢).

= الإستيعاب ج ١ ص ٨١، نقلاً عن مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني باب ذكر مقتل جعفر بن أبي طالب ص ١٠ وما بعدها ط ٢ / ١٩٧٠.
(١) نفس المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٢: تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٢٨٤، مستدرک الحاكم ج ٢ ص ٦٢٢، تاريخ ابن كثير ج ٣ ص ١٢٢: «نقلاً عن الغدير ج ٧ ص ٣٧٦»، كشف الغمة في معرفة الأئمة ج ١ ص ١٦... وغيرها.

- وصعدت قريش حملتها على رسول الله (ص) والسابقين من المؤمنين، فاتحة رسول الله (ص) للبحث عن أرض غير مكة، تستقر عليها دعوة الله، فتنمو عليها شجرة الهدى، وراح يتصل بالقبائل، ويعرض أمره على الناس في أطراف مكة... ثم زار الطائف، واتصل بزعماء قبائلها، فلم يستجب له أحد ذو أثر اجتماعي، بيد أن اليأس لم يتسرب إلى نفسه، واستمر في عرض نفسه على الناس من خارج مكة، حتى التقى في موسم الحج بنفر من أهل يثرب، وفاتهم بأمر الدعوة، فاستجابوا له، ولبوا دعوة الله، وعادوا يحملون كلمة الله إلى قومهم.

وفي اليوم التالي قدم منهم اثنا عشر رجلاً، فبايعوه على الإيمان وحمل الرسالة، فأرسل لتعليمهم أحكام دين الله تعالى: مصعب ابن عمير، فمكث فيهم سنة كاملة، ويدعوهم إلى الله، ويؤدبهم بتعاليم رسالته، ويقرئهم القرآن الكريم فدخل الكثير من الناس في الإسلام، وأستجابوا لنداء الدعوة المباركة..

وفي موسم الحج حضر منهم إلى مكة وفد كبير يقوده مصعب بن عمير، فالتقوا برسول الله (ص)، وبايعوه على النصره أن هو هاجر إلى بلدهم..

وتنزل أمر الله تعالى يدعو المسلمين إلى الهجرة، فزحفوا مواكب المهاجرين صوب الدار الجديدة مخلفين وراءهم المال والوطن وعلائق الدم والقربى.

ولئن كانت الدعوة قد أوشكت على الدخول في مرحلة جديدة من مراحل مسيرتها العتيقة، فإن قريشاً، قد اجتمعت في دار الندوة للتشاور بشأن رسول الله (ص) بالذات، فتوصل قاداتها إلى قرار يقضي

باغتيال جماعي لرسول الله (ص) يتولاه من كل قبيلة رجل منها وأن
ينفذ الإغتيال ليلاً.

وكشف جبريل (ع) لرسول الله (ص) أوراق الجريمة التي أجمعت
قريش على اقترافها.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

(الأنفال / ٣٠)

في فراش رسول الله (ص):

وأبلغ جبريل (ع) رسول الله (ص) بأمر الله تعالى بالهجرة إلى
المدينة المنورة. . . وحين أنتشر الظلام، أسرع المتآمرون لتطويق بيت
الرسول (ص) للحيلولة دون خروجه. . . وعندها جاء دور علي (ع)
حيث أمره رسول الله (ص) أن ينام على فراشه، ويلتحف ببردته، وخرج
صلى الله عليه وآله من بينهم وهو يتلو قوله تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(يس / ٩)

فلم يشاهده أحد من المشركين:

وعند طلوع الفجر اقتحم المتآمرون دار رسول الله (ص) لتنفيذ
جريمتهم واتجهوا لغرفته، فوثب علي (ع) في وجوههم قائلاً: ما
شأنكم؟

قالوا: أين محمد؟

قال «أجعلتموني عليه رقيباً؟ أستم قلتم نخرجه من بلادنا فقد

خرج عنكم...»^(١).

فانقلبوا خاسرين وباؤوا بالفشل الذريع... ثم بدا لهم أن يبحثوا عن الرسول (ص) ويجدوا في طلبه في الجبال والوديان، واصطحبوا لذلك أبا كرز، وهو رجل شهير بعلم معرفة الأثر، وبالفعل استطاع أبو كرز أن يتابع أثر الرسول (ص) حتى أوصل القوم غار جبل «ثور» مؤكداً لهم أن محمداً (ص) قد وصل في نهاية شوطه إلى ذلك الغار، وأذن فلا بد أن يكون قد عرج إلى السماء أو اختفى تحت الأرض^(٢)، وحيث أن الله سبحانه قد بعث عنكبوتاً فنسجت بيتاً لها على باب الغار، فإن المتأمرين لم يخطر ببالهم أن الرسول (ص) في داخل الغار الذي يقفون على بابه، وهكذا صرف الله عقولهم فولوا الأدبار...

وعند حلول الليلة الثانية أسرع علي (ع) وهند بن أبي هالة إلى الغار للإتصال بالرسول (ص) تحت جناح الظلام^(٣) وتحاور رسول الله (ص) مع علي (ع) حول مستلزمات الهجرة... فأوصاه بأداء الأمانات إلى أهلها، وباللحوق به (ص) بعد ذلك وأوصاه أن يحمل معه فاطمة الزهراء (ع) ومن معها من نساء أهل البيت...

انتظار في قبا:

وبعد أيام من مسيرة الركب وصل الرسول (ص) إلى «قبا» حيث نزل عند كلثوم بن الهمد أحد زعماء بني عمرو بن عوف^(٤) وهناك أقام الرسول (ص) مسجد قبا، ومكث ينتظر قدوم علي بن أبي طالب (ع)^(٥)

(١) و(٢) تفسير سورة الأنفال آية ٣٠ يراجع الميزان ج ٩ بحث روائي ص ٨٠.

(٣) أعيان الشيعة ج ٣ ط ٣ / ص ١٥٥.

(٤) بحار الأنوار ج ٩ والروضة من الكافي ج ٨ ص ٣٣٩، للكليني ط / طهران.

(٥) الفصول المهمة في معرفة الأئمة / ابن الصباغ المالكي «فصل في شيء من شجاعته ص ٢٨».

إذ كتب إليه كتاباً يأمره بالمسير إليه، وقد حمل الكتاب أبو وafd الليثي، وحيث أن علياً (ع) قد أدى ما أوصاه به رسول الله (ص) قبل هجرته وأعاد الأمانات التي كانت لدى الرسول (ص) إلى أهلها، فقد عجل باللمحوق بأخيه رسول الله (ص) فبادر إلى إعداد ركائب لحمل النساء فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب.

ثم أمر ضعاف المؤمنين أن يتسللوا ليلاً إلى ذي طوى وخرج هو والفواطم وأيمن وأبو وafd الليثي نهاراً^(١).

ولم تمض غير أيام قليلة حتى وصل ركب علي والفواطم إلى قبا، فاستقبلهم رسول الله (ص) وعانق علياً (ع) وبكى رحمة به - وذلك لما ألم به من إرهاب وأذى.

وبعد مقدم علي (ع) على رسول الله (ص) بيومين ارتحل الرسول (ص) وبصحبه علي (ع) ومن معه من المهاجرين إلى المدينة المنورة...

وكان الركب النبوي يستقبل استقبالاً مهيباً عند كل حي يمر به... حتى إذا وصل الرسول (ص) إلى المكان الذي أقيم مسجده فيه توقفت راحلته عن المسير فنزل عنها، وأقام ضيفاً عند أبي أيوب الأنصاري (ره)... ثم بادر إلى بناء المسجد والدور الخاصة به وبأهل بيته، وفي طليعتهم علي (ع) إذ أقيمت حجراته بجانب حجرة عائشة^(٢).

(١) و (٢) أعيان الشيعة ج ٣ ط ٣ / ص ١٥٥ «هجرته إلى المدينة».

مهمات ما بعد الهجرة

استقبلت المدينة عهداً جديداً من تاريخها بوصول رسول الله (ص) إليها حتى أرسى (ص) قواعد دولة القرآن، وعمل على تحصينها لتكون مناراً يشع نور الحق إلى الآفاق فيبدد ظلام الجاهلية الحالكة..

وإذا كانت الدعوة بعد الهجرة قد امتلكت دولة وفرت لها الكثير من شروط الحماية والتحصين، فإن ذلك لا يعني بحال أن مكر الأعداء وخططهم لإطفاء نور الإسلام قد انتهى بل العكس هو الذي كان، فالجاهلية بقواها المتعددة وواجهاتها الكثيرة قد أجمعت على حرب الإسلام ودولة الإسلام، وقد دخلت فصائل كثيرة إلى الميدان لغير صالح الإسلام، بعد أن أدركت عملياً أن وجودها في خطر بعد امتلاك الإسلام الدولة التي ترعاه ويحقق أهدافه من خلالها..

وهكذا كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد وضعت المسلمين أمام مسؤوليات أشمل ميداناً وأبعد خطراً، حيث بناء الدولة وحمايتها وبناء المجتمع وترصينه، وصد الأعداء ونشر العقيدة وغير ذلك..

والصراع بطبيعته قد تحول بدوره من صراع أفراد أو إرهاب

قبائل، وأصحاب وجاهات لأفراد عزل لا يملكون غير دينهم وثقتهم بالله تعالى.. إلى صراع عسكري منظم بين قوى جمعتها المصالح والإهواء ولو أنياً لحرب الإسلام العظيم باعتباره - وبتقديرهم - الخطر الماحق لوجودهم الفكري والعملي.. وقد تفجر الصراع العسكري بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً.

وحسبك أن دولة القرآن قد شهدت عبر عشر سنوات عاشها الرسول (ص) بعد هجرته إلى المدينة عشرات من الأعمال العسكرية بين حروب دفاعية أو هجومية أو غزوات أو سرايا أو غيرها.. قدم المسلمون خلالها الكثير من الضحايا ولاقوا صنوفاً من البلاء بيد أنهم أنهوا الوجود العملي للجاهلية العربية.. فشملت دولة الإسلام الجزيرة العربية دون منازع..

وإذا تتبعنا تلك المرحلة الدقيقة من عمر الرسالة الخاتمة لوجدنا أن دور علي بن أبي طالب (ع) فيها لم يرق إليه دور قط.. فهو في جميع حروب الإسلام مع أعدائه كان يفوز بقصب السبق لا من باب اشتراكه في الحرب أو قتاله فيها، وإنما بما قدمه من بطولة وتضحية يسبق بها سواه ومن المناسب هنا أن نذكر طرفاً من بطولته (ع):

بأس في الحرب:

١. في معركة بدر:

كان عدد المسلمين يساوي ثلث جيش عدوهم وكانت العدة لدى المسلمين ليست ذات بال فعلى سبيل المثال كانوا لقلّة ركائبهم يركب منهم الإثنان والثلاثة والأربعة على بعير واحد، ولم يكن منهم فارس غير المقداد بن الأسود الكندي، وكانت أسلحة بعضهم من جريد النخل ونحوه..

حتى إذا اضطرت نار الفتنة تقدم علي (ع) وكان يحمل لواء

الرسول (ص)^(١) فخاض غمار معركة حامية غير متكافئة، كان المسلمون خلالها يستغيثون ربهم طلباً للنصر فاستجاب لهم وأمدهم بالملائكة، وقد انتهت المعركة بمقتل سبعين رجلاً من المشركين كان مقتل حوالي نصف عددهم بسيف علي^(٢).

٢. وفي معركة أحد:

كان رسول الله (ص) قد أعطى لواء المهاجرين لعلي (ع) ولما اشتبك الطرفان كان النصر ابتداء للمسلمين، بيد أن حماة جبل أحد الذين أمرهم الرسول (ص) بعدم مفارقه تركوا أماكنهم بعد فرار المشركين بدافع الطمع في الغنائم، فصعدت إحدى فرق لمشركين بقيادة خالد بن الوليد الجبل فتغير الموقف لصالح المشركين فخسر المسلمون الكثير من الشهداء. . وأصيب الرسول (ص) بجروح في وجهه الكريم وكسرت ربايعيته وحيث لم يبق مع رسول الله (ص) في ذلك الموقف الرهيب بعد فرار المسلمين غير علي (ع) وأبي دجانة وسهل بن حنيف استبسل علي (ع) كعادته في الدفاع عن رسول الله (ص) ومجد الرسالة الإلهية، وقتل حملة اللواء من المشركين واحداً بعد الآخر، وكانوا تسعة رجال ثمانية من بني عبد الدار وتاسعهم عبدهم^(٣). مما أربك العدو واضطره للفرار.

(١) أحمد بن يحيى البلاذري في أنساب الأشراف ج ٢ ص ٩١ و ٩٤ ط / ١ سنة ١٩٧٤ بيروت / مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١١١ / وابن سعد في الطبقات ج ٣ ص ١٥.

(٢) حياة أمير المؤمنين / محمد صادق الصدر ط / ٢ سنة ١٩٧٢ ص ٢٣٠.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٧ / وأحمد بن حنبل في الفضائل / وابن هشام في السيرة النبوية ج ٣ ص ٥٢ ودلائل الصدق / الشيخ محمد حسن الظفر ج ٢ ص ٣٥٧ ط قم. وحياة أمير المؤمنين / السيد الصدر ص ٢٣٦ وما بعدها والإرشاد للمفيد ص ٥٢.

٣. وفي غزوة الأحزاب:

طوقت المدينة بعشرة آلاف من المشركين^(١) بشتى فصائلهم، ونقض بنو قريظة صلحهم مع رسول الله (ص) وانضموا إلى صفوف الغزاة، فتغير ميزان القوى لصالح العدو، وبلغ الذعر في نفوس المسلمين أيما مبلغ، فقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزلت نفوس وظنت نفوس بالله الظنون - كما حدثنا القرآن(*) - .

وبدأ العدو هجومه بعبور عمرو بن عبد ود العامري أحد أبطال الشرك الخندق مع بعض رجاله، فهددوا المسلمين في داخل المدينة بل في داخل تحصيناتهم.. وراح بن عبد ود يصول ويجول، ويتوعد المسلمين ويتفاخر عليهم ببطولته، ويستعلي وينادي:

هل من مبارز؟

فقام علي (ع) وقال: إنا له يا رسول الله .

قال رسول الله (ص): اجلس إنه عمرو!

وكرر ابن عبد ود النداء وجعل يوبخ المسلمين، ويسخر بهم يقول: أين جتكم التي تزعمون، أن من قتل منكم يدخلها، أفلا تبرزون لي رجلاً؟

ولما لم يجبه أحد من المسلمين، كرر علي (ع) طلبه: أنا له يا رسول الله .

فقال (ص) اجلس إنه عمرو!

فأبدى علي عدم اكتراثه بعمرو وغيره، قائلاً: وإن كان عمروا!

(*) تراجع سورة الأحزاب ١٠ .

فأذن رسول الله لعلي (ع)، وأعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه، وعممه بعمامته..

ثم قال (ص) «اللهم هذا أخي وابن عمي، فلا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين»^(١).

ومضى علي (ع) إلى الميدان، وخاطب ابن عبد ودّ بقوله: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله، أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا قبلتها..

قال عمرو: أجل.

فقال علي (ع) فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله (ص) وإلى الإسلام.

فقال: لا حاجة لي بذلك.

قال له الإمام: فإني أدعوك إلى البراز.

فقال عمرو: إني أكره أن أهريق دمك، وإن أباك كان صديقاً لي..

فرد عليه الإمام (ع) قائلاً: لكني والله أحب أن أقتلك، فغضب عمرو، وبدأ الهجوم على علي (ع) فصده الإمام برباطه جأشه المعتاد، وأرداه قتيلاً، فعلا التكبير، والتهليل في صفوف المسلمين^(٢)..

ولما عاد الإمام (ع) ظافراً استقبله رسول الله (ص) وهو يقول «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمر بن عبد ودّ، أفضل من عمل أمي

(١) السيرة النبوية / أحمد زيني دحلان ج ٢ ص ٦ و ٧ «غزوة الخندق».

(٢) المصدر السابق.

إلى يوم القيامة»^(١).

ويعد مقتل ابن عبد وّ بادر علي (ع) إلى سد الثغرة التي عبر منها عمرو ورجاله الخندق ورابط عندها^(٢) مزعماً القضاء على كل من تسول له نفسه العبور، ولولا ذلك الموقف البطولي لاقتحم جيش المشركين المدينة على المسلمين، بذلك العدد الهائل.

وهكذا كانت بطولة علي (ع) في غزوة الأحزاب أهم عناصر النصر للمعسكر الإسلامي، وانهزم المشركين.

٤. وفي غزوة خيبر:

عجز عليه القوم عن الصمود أمام اليهود، ولما بان ضعف الجميع عن اقتحام حصون خيبر حتى نأخر فتحها أياماً قال رسول الله (ص) «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراماً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه..»^(٣).

ولما كان الغد أعطاهما علياً فاقتحم حصون خيبر ودخلها عليهم عنوة، وقتل بطلهم مرحباً ثم فتح الحصون جميعاً..

٥. غزوة حنين:

فرّ المسلمون فلم يبق مع رسول الله (ص) غير علي (ع)^(٤)

(١) مستدرك الصحيحين ٣ ص ٣٢ عن سفيان الثوري ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٩: نقلاً عن فضائل الخمسة ج ١.

(٢) السيرة النبوية لدحلان / ٢ ص ٦ و ٧ «غزوة الخندق» أو إرشاد المفيد ص ٥٨.

(٣) أنساب الأشراف ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤ عن أبي هريرة وابن عباس بلفظ متشابه / وخصائص علي بن أبي طالب للنسائي ص ٩ وما بعدها ط / ١ ١٩٧٥ بيروت وفي الإصابة والاستيعاب وحلية الأولياء ومسلم في الصحيح بالفاظ متقاربة.

(٤) سيرة الرسول للسيد محسن الأمين نقلاً عن السيرة الحلبية وابن قتيبة في المعارف،

والعباس وبعض أهل البيت (ع) فكان النصر بعد عودة المسلمين لميدان القتال.. وكان الظفر..

هذه صور يسيرة من مواقف الصمود التي سجلها الإمام علي (ع) بين يدي رسول الله (ص) القائد في أدق الساعات وأكثرها حرجاً^(١).

ومن نافلة القول أن نعيد إلى الأذهان أن علياً (ع) قد اشترك في حروب رسول الله جميعاً غير تبوك^(٢) وذلك بأمر من الرسول (ص) بذاته، وكان له في جميعها القُدح المعلى، هذا عدا الغزوات التي قادها بنفسه عليه السلام.

والباحث المنصف حين يتناول حياة الإمام علي (ع) بالدراسة وفي شطرها الجهادي بالذات يقف مذهولاً أمام بطولته الفريدة وتضحياته المعطاءة، لكن البطولة بما هي بطولة ليست هي الميزة في جهاد علي (ع) وإن كان ميدانها الواسع وشمولها يبقى سمة من سمات علي ولكن الأهم فيها إنما هو الإخلاص لله تعالى والتضحية في سبيله.

فإيمان علي (ع) بالله تعالى يبقى هو الحافز والمحرك لتلك

= وتفسير الميزان للسيد الطباطبائي ج ١٠ تفسير آية ٢٥ من التوبة والبحث الروائي / والإرشاد للمفيد «غزوة حنين» ص ٨١.

(١) للاستزادة يراجع كتاب الإمام علي / عبد الفتاح عبد المقصود وأعيان الشيعة المجلد الثالث / للسيد محسن الأمين والإرشاد للشيخ المفيد وسيرة ابن هاشم والفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ المالكي.

(٢) راجع أنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ٩٢ ط ١٩٧٤، (ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١١١ وابن سعد في طبقاته ج ٣ ص ١٠ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٤٧٥) نقلاً عن فضائل الخمسة لمعرفة المزيد من المصادر ج ٢ ص ٣٠٩.

البطولات العظيمة التي سجلها تاريخ الإسلام في أنصع صفحاته
بشكل لم يسجل مثلها لسواه.

وحسبك في ذلك أن كثيراً من المواقف العسكرية - كما
رأينا - يعترض فيها عليه القوم فضلاً عن عامتهم للهون بل والهزيمة
النكراء غير أن التاريخ لم يسجل لعلي (ع) إلا الصمود والفداء
والتضحية في كل موقف، صمد الناس فيه أم انهزموا، الأمر الذي لا
يفسره إلا ما يتمتع به علي (ع) من صدق اليقين وعمق الإستعانة
والتوكل على الله والعبودية له، واللامبالاة بما سواه كبر ذلك أم صغر.
هذا عدا ما يتمتع به علي (ع) من علو الهمة وقوة العزيمة ورباطة
الجأش وسمو النفس.

علي في منظار الإسلام

لم يحظ رجل في الإسلام ما حظي به علي بن أبي طالب (ع) من ثناء وإجلال من لدن الرسالة الإسلامية، وحثها المتزايد لإتباعها لا على تقديره فحسب، وإنما على التزامه، وانتهاج سبيله. وقد انطوى القرآن الكريم والسنة الشريفة والتاريخ الصحيح على نصوص وروايات تنطق كلها بالثناء على علي (ع). فمرة تأتي كأوسمة يضعها الإسلام على صدره فيميزه. ومرة على شكل أحكام وأوامر تلزم المسلمين على التزام علي (ع) إماماً ومنهجاً. فمن أوسمه التقدير التي نالها علي (ع) من الله تعالى ومن رسوله (ص) نذكر منها يلي :

١ - ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.

(الأحزاب - ٣٣)

وذهب المفسرون لهذه الآية أنها نزلت في رسول الله (ص)

وعلي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين (ع) حين دعا الرسول (ص) بعبادة وجللهم بها، ولها نزلت الآية قالت أم سلمة زوجة الرسول (ص): هل أنا من أهل بيتك؟ قال: لا ولكنك على خير^(١).

٢ - ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

(آل عمران / ٦١)

ذكر أهل التفسير من جميع المسلمين أنها نزلت حين خرج رسول الله (ص) بعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العقوبة واعتذروا عن مباہلته، فدفَعُوا الجزية خضوعاً منهم لسلطان دولته (ص)^(٢).

٣ - ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا

(١) راجع صحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة، والحاكم في مستدرک الصحيحين ج ٣ ص ١٤٧ والبيهقي في سنة ج ٢ ص ١٤٩ والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية، وصحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٠٩ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢٩٧ وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٢٢٤ وما بعدها.

(١) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٣٠٠ وأحمد بن حنبل في المسند ج ١ ص ١٨٥ والسيوطي في الدر المنثور في تفسير آية المباهلة والزمخشري في كشافه والفخر الرازي في تفسير الكبير وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ص ٢٤٤ وما بعدها.

يَوْمًا عَبُوسًا قُمَطَرِيرًا. فَوَقَّيْهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَفَّيْهُمُ نَضْرَةً
وَسُرُورًا﴿.

(الدهر / ٨ - ١١)

وهذه بإجماع أهل التفسير نزلت في علي وفاطمة والحسن
والحسين (ع).

وكان ذلك عندما مرض الحسنان فنذر علي (ع) وفاطمة وفضة إن
شفي الحسنان، فإن علياً والزهراء وفضة يصومون لله تعالى ثلاثة
أيام.

وبعد شفاء الحسين صام أهل البيت (ع).

وعند غروب شمس اليوم الأول طرق الباب عليهم مسكين يشكو
جوعه، فأعطوه ما عندهم من خبز الشعير.

وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه..

وفي ثالث أيام النذر سألهم أسير فقدموا له طعامهم وهكذا بقي
أهل البيت (ع) ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها غير الماء، فأنزل الله فيهم
هذه الآيات الكريمة إعظاماً لشأنهم وإكبار لعملهم^(١) ليكونوا القدوة
وليكونوا المثل.

٤ - ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ

(١) يراجع الزمخشري في كشافه ج ٢ / والواحي في أسباب النزول / ومجمع البيان
للطبرسي في تفسير سورة الدهر / والحافظ محمد بن جرير الطبري كما في الكفاية
/ وابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢ - ٤٧ / والحاكم النيسابوري ذكره
في مناقب فاطمة (ع) كما في الكفاية / وأبو إسحاق التلبي في تفسيره والكشف
والبيان / والألوسي في روح المعاني / والطبري في الرياض النضرة ج ٢
ص ٢٠٧ / نقلاً عن الغدير للشيخ الأميني ج ٣ ص ١٠٧ - ١١١.

بِإِلَهِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

(التوبة / ١٩)

نزلت هذه الآية عندما تفاخر طلحة بن شيبه والعباس بن عبد المطلب: إذ قال طلحة: إنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي!

وقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها وفي هذه الأثناء مرّ عليّ بهما وسألهما: بم يفتخران. فذكرا له مقالاً.

فقال علي (ع): أنا أوتيت منذ صغري ما لم تأتيا.

فقالا وما ذاك؟

فقال (ع): لقد صليت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله تعالى الآية المذكورة في الثناء على ما افتخر به علي (ع) ^(١).

وإذا كان القرآن الكريم يثني هذا الثناء الجميل على علي (ع) فتعال معي إلى السنة الشريفة لنقرأ شيئاً منها في هذا الصدد:

١ - قال رسول الله (ص): أنا مدينة العلم وعلي بابها ^(٢).

٢ - وقال (ص): «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا

(١) تفسير الطبري عن أنس ج ١٠ ص ٥٩ / وأسباب النزول للواحدي ص ١٨٢ / والقرطبي في تفسيره ج ٨ ص ٩١ / والرازي في تفسيره ج ٤ ص ٤٢٢ / والخازن في تفسيره ج ٢ ص ٢٢١ / وأبو البركات النسفي ج ٢ ص ٢٢١ / والدر المثور للسيوطي ج ٣ ص ٢١٨ / وغيرهم مع اختلاف في التفاصيل والألفاظ.

(٢) مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٢٦ / ومناقب أحمد بن حنبل وأبو عيسى الترمذي في جامعة الصحيح / وكنز العمال ج ٦ ص ٤٠١ / وأسد الغابة ج ٤ ص ٢٢ / والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٤ ص ٣٤٨: نقلًا عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٢٥٠ وما بعدها.

نبي بعدي»^(١).

٣ - وقال (ص): مخاطباً علياً (ع) «لا يحبك إلا مؤمن ولا ييغضك إلا منافق»^(٢).

٤ - وقال (ص) يوم المواخاة - بين المهاجرين والأنصار مخاطباً علياً (ع): أنت أخي وأنا أخوك فإن ذكرك أحد فقل أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيهما بعدك إلا كذاب»^(٣).

هذه طائفة من النصوص الخاصة بالثناء على علي (ع) ومن شاء المزيد فليراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة وينايع المودة ومسند أحمد بن حنبل وفضائل أمير المؤمنين وأمانته من دلائل الصدق وغيرها.

أما النصوص القاضية بوجوب التزام علي (ع) إماماً وقائداً في دنيا المسلمين فنذكر منها ما يلي: -

من فضائل الامام علي (ع):

أ - ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ .

(المائدة / ٥٥)

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٧٤ / ومسند أبي داود ج ٢ ص ٢٨ والبخاري في باب غزوة تبوك ومسلم الترمذي وغير هؤلاء نقلاً عن المراجعات ص ١٣٣ - ١٣٦ .

(٢) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٢٩ / وأحمد بن حنبل ج ٦ ص ٢٩٢ / والنسائي ومستدرک الصحيحين ج ٣ ص ١٢٩ وغيرهم راجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ٢٠٧ وغيره .

(٣) صحيح ابن ماجة وصحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٩٩ / والنسائي في الخصائص ص ٣ و ١٨ / ومستدرک الصحيحين ج ٣ ص ١٤ / ومسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٥٩ وغيرها مع اختلاف في الألفاظ يسير .

قال المفسرون إن الآية الكريمة نزلت في علي بن أبي طالب (ع)^(١) فأكدت وجوب الإلتزام به إماماً ومرجعاً فكرياً واجتماعياً وسياسياً للأمة، وقد كان سبب نزولها حين تصدق علي (ع) على مسكين بخاتمه أثناء ركوعه، فالآية إنما نزلت بهذا الصدد وهي تؤكد في ذات الوقت إمامة علي (ع)

ب. خطبة الغدير:

وهي البيان الذي وجهه الرسول (ص) إلى المسلمين في غدير خم في آخر حجة له لبيت الله، فعن البراء بن عازب قال:

«أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فأمر: الصلاة جماعة، فأخذ بيد علي فقال: «أأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؟.

قالوا: بلى.

قال (ص): أأنت أولى بكل مؤمن من نفسه؟

قالوا: بلى.

قال (ص): «فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»^(٢) وفي لفظ أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص)

(١) تفسير البضاوي / ومجمع البيان للطبرسي / وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره / والطبري في تفسيره ج ٦ ص ١٦٥ / والواحي في أسباب النزول ص ١٤٨ / والخازن في تفسيره ج ١ ص ٤٩٦ / والرازي في تفسيره ج ٣ ص ٤٣١ / وأبو البركات النسفي ج ١ ص ٤٩٦ / والنيسابوري في تفسيره ج ٣ ص ٤٦١ / وابن حجر في الصواعق ص ٢٥ وغيرها نقلاً عن: أعيان الشيعة ج ٣ ق ١ ص ١٣٠ - ١٣٤ وخلفاء الرسول الإثنا عشر ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢) اللفظ لصحيح ابن ماجه ص ١٢.

قال (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)^(١).

ج: قال رسول الله (ص) «علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»^(٢).

وفي حديث آخر لرسول الله (ص) يخاطب به عمار بن ياسر (ره) جاء فيه «... وإن سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي وادياً فأسلك وادياً سلكه علي وخل الناس طراً...»^(٣).

د- وقال (ص):

«لكل نبي وصي ووارث وأن علياً وصي ووارثي»^(٤)

(١) مسند ابن حنبل ج ٤ ص ٢٨١، فقد نص عليه قائلوا رواه ثلاثون صحابياً، وأخرجه أيضاً النسائي في خصائص علي بن أبي طالب بعدة طرق والترمذي والطبراني / عن زيد بن أرقم والفخر الرازي في تفسير آية «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» وكنز العمال ج ١ ص ٤٨ / ومستدرک الصحيحين وسواهم. نقلاً عن كتاب الغدير تأليف العلامة الأميني - ره - ج ١.

(٢) تاريخ البغدادي ج ١٤ ص ٣٢١ / والهيتمي في مجموعه ج ٧ ص ٢٣٥ / وكنز العمال ج ٦ ص ١٥٧ / وتفسير الرازي ج ١ ص ١١١ / وغيرهم مع اختلاف في الألفاظ. نقلاً عن علي والوصية ص ١١٣.

(٣) تاريخ الخطيب البغدادي ج ١٣ ص ١٨٦ / والهيتمي في مجموعه ج ٧ ص ٢٣٦ / وكنز العمال ج ٦ ص ١٥٥ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٤) ينابيع المودة سليمان الحنفي «باب عهد النبي لعلي وجعله وصياً» والذهبي في ميزان الاعتدال والسيوطي في اللآلئ والدبليبي في كنوز الدقائق ومنقب أحمد بن حنبل وكنز العمال ج ٦ ص ١٥٤ والمعجم الكبير للطبراني والمحب الطبري في الذخائر وغيرهم نقلاً عن علي والوصية لنجم الدين العسكري ١٩٤.

هذا غيض من فيض من النصوص الإسلامية الموثوقة المجمع
على صحتها، ووثاقها من جميع المسلمين^(١).

(١) «ومن شاء الميزد فليراجع ينابيع المودة / للشيخ القندوزي الحنفي والفصول
المهمة لابن الضباع المالكي وفضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروز أبادي
ومسند أحمد بن حنبل وكتاب المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين وعلي
والوصية للشيخ نجم الدين العسكري وغيرها.

عليه في عهد الخلفاء

... فاضت نفس رسول الله (ص) في حجر علي (ع)^(١) ورحل (ص) إلى ربه الأعلى، وهو قلق على مستقبل الرسالة والأمة، كما يجسد ذلك بقوة قوله (ص) عند زيارته لقبور المؤمنين في البقيع في بداية مرضه الذي قضى فيه «السلام عليم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه، مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها..»^(٢).

وتأكيداه المستمر على ضرورة التزام الثقيلين: كتاب الله تعالى والعترة الطاهرة^(٣).

وطلبه في آخر ساعة من حياته أن يؤتى بدواة وكتف ليكتب

-
- (١) مناقب الخوارزمي عن عائشة ومسنند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٣٠٠ / وذخائر العقبى للمحب الطبري ص ٧٣ وغيرها يراجع علي والوصية ص ٢٠٦ - ٢١١.
 (٢) أخرجه النسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد بن حنبل في مسنده.
 (٣) أخرجه الترمذي برقم ٨٧٤ من أحاديث كنز العمال ج ١ ص ٤٤ ومسنند ابن حنبل ج ٥ ص ١٨٢ وص ١٨٩ ومسنند الحاكم ج ٣ ص ١٤٨ وغيرها.

للأمة كتاباً لن تضل بعده أبداً^(١).

إلى غير ذلك من مصاديق توجسه وقلقه (ص) على مستقبل المسيرة الإسلامية، بالرغم من احتياطه لتحصين الأمة وتجنّبها من الوقوع في الفتنة.

وما أن فاضت نفس رسول الله (ص) واشتغل علي (ع) وأهل البيت بتجهيزه من أجل مواراة جسده الطاهر في مثواه الأخير، حتى عقدت الأنصار وبعض المهاجرين اجتماعاً في سقيفة بني ساعدة لتنصيب من يخلف النبي (ص) في قيادة المسلمين.

وبعد مناقشات حادة وطويلة سادها جو من التوتر والقلق والعنف والخلاف بادر عمر بن الخطاب إلى بيعة أبي بكر بالخلافة^(٢) وطلب من الحاضرين ذلك، ولم يكن علي (ع) على علم بما حدث، ولكن النبا قد انسأب إلى مسامعه من خلال الضجيج الذي أحدثه خروج القوم من السقيفة، وهم في طريق توجيههم للمسجد النبوي:

وحتى تلك الساعة ما زال علي وأهل البيت (ع) مشغولين بتجهيز فقيد الأمة العظيم رسول الله (ص) إذ ظل (ص) جثمانه الطاهر ثلاثة أيام^(٣) دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاة عليه.

ولعدم قناعة الإمامة (ع) بما جرى ظل مؤمناً بحقه في الخلافة واعتزل الناس، وما هم فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في ما

(١) أخرجه البخاري ج ١ كتاب العلم ص ٢١ ومسلم في آخر الوصايا من صحيحه ج ٣ ص ٢٥٩ / وأحمد بن حنبل في مسنده ج ١ وغيرهم.

(٢) راجع صحيح البخاري ج ٤ ص ١٩٤ وتراجع السقيفة / للشيخ محمد رضا المظفر ونظام الحكم والإدارة في الإسلام / لمحمد مهدي شمس الدين للتفاصيل.

(٣) تاريخ ابن كثير ج ٥ ص ٢٧١ / وتاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٥٢، نقلاً عن الغدير ج ٧ ص ٧٥.

يسمى بحروب الردة ولا سواها^(١).

ولقد استجدت أمور وأحداث خطيرة تتهدد الإسلام وأمنه بالفناء،
نقد قوي أمر المتنبيين بعد وفاة رسول الله (ص) واشتد خطرهم في
الجزيرة العربية من أمثال: مسيلمة الكذاب، وطلحة ابن خويلد الأفاك
وسجاح بنت الحرث الدجالة وغيرهم وصار وجودهم يشكل خطراً
حقيقياً على الدولة الإسلامية.

واشتد ساعد المنافقين وقويت شوكتهم في داخل المدينة وكان
الرومان والفرس للمسلمين بالمرصاد^(٢).

هذا عدا ظهور التكتلات السياسية في المجتمع الإسلامي على
أثر بiece السقيفة.

ولقد تعامل الإمام (ع) مع الخلافة حسب ما تحكم به المصلحة
الإسلامية حفظاً للإسلام وحماية للجامعة الإسلامية من التمزق
والضياع، وتحقيقاً للمصالح العليا الإسلامية التي جاهد من أجلها.

وللإمام علي (ع) كتاب جاء فيه - بهذا الصدد - ما نصه «...
فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام،
يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت إن
لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به
عليّ أعظم من فوت ولا يتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول
منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في
تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهت»^(٣).

(١) السقيفة ص ١٦٠ ط ٤ / ١٩٧٣ بيروت.

(٢) المراجعات / للحجة السيد شرف الدين ص ٣٠٢.

(٣) من كتاب له إلى أهل مصر مع مالك الأشتر حين ولاء إمارتها ص ٤٥١ من نهج
البلاغة تبويب الدكتور صبحي الصالح ط ١ ١٩٦٧ بيروت.

بيد أن صوت علي (ع) كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتي، وقد تصدى - في هذا المضمار - لتوجيه الحياة الإسلامية، وفقاً لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن أجل ذلك فإن الباحث التاريخي في حياة الإمام (ع) لا يلبث إلا أن يلتقي مع مئات المواقف والأحداث - في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان التي لا تجد غير علي (ع) مدبراً لها ومعالجاً وقاضياً بأمر الشريعة فيها.

والخلفاء الثلاثة لم يروا بدأ من استشارته إذا التبت عليهم الأمور، وهكذا تجده - مرة - مرشداً إلى الحكم الإسلامي الصحيح في أمر ما ومرة تجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى موجهاً للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الإسلامية العليا.

وبمقدورنا أن نلمس دوره الرسالي ذلك إذا طرحنا بعض مفردات منهجه المثبني أيام الخلفاء الذين سبقوه.

أ. في خلافة أبي بكر:

١ - فكر أبو بكر بغزو الروم فاستشار جماعة من الصحابة فقدموا وأخروا، ولم يقطعوا برأي، فاستشار علياً (ع) في الأمر فقال (ع) إن فعلت ظفرت.

فقال أبو بكر: بشرت بخير.

وأمر الناس بالخروج بعد أن أمر عليهم خالد بن سعيد^(١).

٢ - أراد أبو بكر أن يقيم الحد على شارب خمر...

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١١١ - نقلاً عن علي والخلفاء للعسكري ص ٦٢.

فقال الرجل: إني شربتها ولا علم لي بتحريمها فأرسل إلى الإمام يسأله عن ذلك فقال (ع): مُر نقيبين من رجال المسلمين يطوفان به على المهاجرين والأنصار وينشدانهم هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله (ص)، فإن شهد بذلك رجلاً منكم فأقم الحد عليه، وإن لم يشهد أحد بذلك، فاستتب وخلّ سبيله».

ف فعل الخليفة ذلك، فعلم صدق الرجل فخلّى سبيله^(١).

٣ - عن محمد المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى الخليفة أبي بكر أنه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب، ينكح كما تنكح المرأة، وأن أبا بكر جمع لذلك ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان فيهم علي بن أبي طالب أشدهم يومئذ قولاً، فقال:

إن هذا ذنب لم تعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة - يعني قوم لوط - فصنع الله بها ما قد علمتم، أرى أن تحرقوه بالنار، فكتب أبو بكر بذلك إلى ابن الوليد^(٢).

٤ - قدم جاثليق النصاري يصحبه مائة من قومه فسأل أبا بكر أسئلة، فدعا علياً (ع) فأجابه عنها، ونكتفي منها بسؤال واحد من أسئلة الجاثليق: - أخبرني عن وجه الرب تبارك وتعالى!

فدعا علي (ع) بنار وخطب، وأضرمه، فلما اشتعلت قال أين وجه هذه النار؟

قال الجاثليق: هي وجه مع جميع حدودها.

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ١٧٨ ويحار الأنوار ج ٤٠ عن الكافي.

(٢) كنز العمال ج ٣ ص ٩٩، نقلاً عن علي والخلفاء ص ٦٣.

فقال علي (ع): هذه النار مدبرة مصنوعة، لا يعرف وجهها وخالقها ولا يشبهها، والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله لا تخفى على ربنا خافية^(١).

٥ - وأرسل ملك الروم رسولاً إلى أبي بكر يسأله عن رجل لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولا يخاف الله، ولا يركع ولا يسجد ويأكل الميتة والدم، ويشهد بما لم ير ويحب الفتنة ويبغض الحق، فأخبر بذلك علياً (ع) فقال:

هذا رجل من أولياء الله: لا يرجو الجنة ولا يخاف النار، ولكن يخاف الله ولا يخاف من ظلمه، وإنما يخاف من عدله، ولا يركع ولا يسجد في صلاة الجنازة، ويأكل الجراد والسبك، ويأكل الكبد، ويحب المال والولد (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) ويشهد بالجنة والنار وهو لم يرهما، ويكره الموت وهو حق^(٢).

هذه بعض مصاديق اهتماماته بمسيرة الإسلام التاريخية في عهد أبي بكر.

ب. في خلافة عمر بن الخطاب:

١ - حين أراد عمر بن الخطاب أن يغزو الروم راجع الإمام (ع) في الأمر، فنصحه الإمام بألا يقود الجيش بنفسه مبيناً علة ذلك قائلاً: «... فابعث إليهم رجلاً مجرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس، ومثابةً

(١) علي والخلفاء ص ٦٠ نقلًا عن التستري / قضاء أمير المؤمنين ص ٦٦ ط / ١ سنة ١٣٦٩ هـ النجف الأشرف.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ١٨٠.

للمسلمين»^(١).

٢ - ورد إلى بيت مال المسلمين مال كثير - من البحرين - فقسمه عمر بين المسلمين، ففضل منه شيء، فجمع عمر المهاجرين والأنصار واستفتاهم بأمره قائلاً: ما ترون في فضلٍ، فضلٍ عندنا من هذا المال؟

قالوا: يا أمير المؤمنين إنا شغلناك بولاية أمورنا من أهلك وتجارتك، وضيعتك، فهولك.

فالتفت عمر إلى علي قائلاً: ما تقول أنت؟

قال الإمام (ع): قد أشاروا عليك.

قال الخليفة: فقل أنت؟

قال (ع): لِمَ تجعل يمينك ظناً، ثم حدثه بواقعة مشابهة في عهد رسول الله (ص).

وأخيراً أشار عليه الإمام (ع) بتوزيعه على الفقراء، قائلاً، «أشير عليك أن لا تأخذ من هذا الفضل وأن تفضيه على فقراء المسلمين».

فقال عمر: صدقت والله^(٢).

٣ - «عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول أن نترك هذا المال في جوف الكعبة لأخذه وأقسمه في سبيل الله وفي سبيل

(١) نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح ط ١ ص ١٩٢.

احفز: ادفع وسق، أهل البلاء: أهل المهارة في الحرب، مثابة: مرجع.

(٢) علي والخلفاء / نجم الدين العسكري ص ٨٣، نقلاً عن أحمد بن حنبل في المسند ج ١ ص ٩٤ وكنز العمال ج ٤ ص ٣٩.

الخير وعلي بن أبي طالب يسمع ما يقول، فقال عمر: ما تقول يا ابن أبي طالب بالله لئن شجعتني عليه لأفعلن؟

فقال علي: أتجعله فينا، وصاحبه رجل يأتي في آخر الزمان^(١) فاقنع عمر بضرورة عدم التصرف بحلي الكعبة.

٤ - بعث أبو عبيدة بن الجراح وبرة بن رومان الكلبي إلى عمر بن الخطاب: إن الناس قد تتابعوا في شرب الخمر بالشام، وقد ضربت أربعين ولا أراها تغني عنهم شيئاً، فاستشار عمر الناس..

فقال علي (ع): أرى أن تجعلها بمنزلة حد القذف «ثمانون جلدة».

إن الرجل إذا شرب هذي، وإذا هذي، افتري. فجلدها عمر بالمدينة، وكتب إلى أبي عبيدة.. فجلدها بالشام^(٢).

٥ - وقد ورد أن عمر بن الخطاب رأى ليلة رجلاً وامرأة على فاحشة، فلما أصبح قال للناس: أرايتم أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة. فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين؟

قالوا: إنما أنت إمام.

فقال علي بن أبي طالب: «ليس ذاك لك، إذن يقام عليك الحد، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهداء» ثم إن عمر ترك الناس ما شاء الله، ثم سألهم: فقال القوم مثل مقالته الأولى.. وقال علي (ع) مثل مقالته.

(١) كنز العمال ج ٧ ص ١٤٧ وصحيح البخاري ٧٢٧/١٩ وغيره نقلاً عن علي والخلفاء ص ٨٧.

(٢) سنن البيهقي وتاريخ الطبري وكنز العمال ج ٣ ص ١٠١ وشرح الموطأ للزرقاني ج ٤ ص ٢٥ وغيره. نقلاً عن علي والخلفاء ص ٩٠.

فأخذ عمر بقول الإمام^(١).

٦- عن ابن سيرين أن عمر بن الخطاب سأل الناس قائلاً: كم يتزوج المملوك؟ وقال لعلي: إياك أعني يا صاحب المعافري - رداء كان عليه -

فقال الإمام (ع) اثنتين^(٢).

٧- بعد أن فتح المسلمون الشام جمع أبو عبيدة بن الجراح المسلمين واستشارهم بالمسير إلى بيت المقدس أو إلى قيسارية، فقال له معاذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك فامتثل، فكتب ابن الجراح إلى عمر بالأمر، فلما قرأ الكتاب، استشار المسلمين بالأمر.

فقال علي (ع): مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى، كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عمر: صدق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وصدقت أنت يا أبا الحسن. ثم كتب إلى أبي عبيدة بالذي أشار به علي (ع)^(٣):

٨- بعد انتصار المسلمين على الفرس في خلافة عمر، شاور

(١) كنز العمال ج ٣ ص ٩٦ والفتوحات الإسلامية ج ٢ ص ٤٨٢، نقلًا عن علي والخلفاء ص ٩٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب. ج ٢ ص ١٩١، وعلي والخلفاء ص ١٠٢.

(٣) علي والخلفاء ص ١٣٣. نقلًا عن ثمرات الأوراق في المحاضرات لابن الحجة الحموي الحنفي. ج ٢ ص ١٥ ط ١٣٦٨.

ابن الخطاب أصحاب رسول الله (ص) في سواد الكوفة ..
 فقال بعضهم: تقسمها بيننا، ثم شاور علياً (ع) في الأمر.
 فقال أن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن
 تقرها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا وللمن بعدنا فقال عمر لعلي:
 وفقك الله... هذا الرأي^(١)!
 ٩- عن الطبري في تاريخه عن سعيد بن المسيب. قال: جمع
 عمر بن الخطاب الناس فسألهم، من أي يوم نكتب التاريخ؟
 فقال علي (ع): من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله،
 وترك أرض الشرك، ففعله عمر^(٢)، وهكذا وجد التاريخ الهجري
 ليؤرخ به المسلمون.
 هذه بعض ملامح دور الإمام علي (ع) الرسالي في خلافة
 عمر بن الخطاب.

ج- في عهد عثمان:

١- تزوج شيخ كبير بكرةً فحملت، فادعى الرجل أنه لم يصل
 إليها، فسأل عثمان المرأة: هل افتضك الشيخ؟
 قالت: لا فأمر بإقامة الحد عليها.
 فقال الإمام (ع): إن للمرأة سمين: سم الحيض وسم البول،
 فلعل الشيخ كان ينال منها فسال ماؤه في سم الحيض، فحملت منه،

(١) علي والخلفاء ص ٢٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٥٣، وفي تاريخ اليعقوبي مثله وكثر العمال ومستدرك
 الحاكم والكامل لابن الأثير نقلاً عن علي والخلفاء ص ٢٤٠.

فقال الرجل: قد كنت أنزل الماء في قبلها من غير وصول إليها بالافتضاض.

فقال الإمام علي (ع): الحمل له، والولد له، وأرى عقوبته على الإنكار له^(١).

٢ - عن موطأ مالك عن بعجة بن بدر الجهني: أنه أتى - عثمان - بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهم برجمها فقال علي (ع): إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إن الله تعالى يقول: «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً» ثم قال «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة».

فحولان مدة الرضاعة وستة أشهر مدة الحمل.

فقال عثمان: ردوها^(٢).

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ١٩٢ وعجائب أحكام أمير المؤمنين / محمد ابن علي القمي (ره) ص ٤٣.

(٢) المناقب ص ١٩٢ وابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ٥٧، والبيهقي في سننه ج ٧ ص ٤٤٢.

«خاتمة»

هذه أمثلة يسيرة مما كان ينهض الإمام علي (ع) به من مسؤوليات عظيمة في عهد الخلفاء، وكان دافعه في ذلك الإخلاص للرسالة وحفظ الوحدة الإسلامية وحماية المسيرة الإسلامية من الانحراف.

ولقد تنبه الخليفة الثاني إلى أهمية ما يقوم به علي (ع) في هذا المضممار، فصرح مراراً مشيداً بذلك الفضل، ومنوهاً بأهميته في مسيرة الخلافة كقوله: «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن»^(١)، وغير ذلك.

(١) الدر المنثور للسيوطي ج ٣ ص ١٤٤ وسيرة عمر لابن الجوزي ص ١٠٦ والفتوحات الإسلامية لدحلان ج ٢ ص ٤٨٦ وغيرها، نقلاً عن علي والخلفاء للشيخ نجم الدين العسكري ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج ٢ والغدير ج ٦ و٧، وعجائب أحكام أمير المؤمنين للمفسر الجليل محمد بن إبراهيم القمي.

القسم الثاني

«دعونا»
«والتمسوا غيرك»

مقدمة

... في هذا الجزء من دراستنا لحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، ينصب البحث على دراسة أدق المراحل، التي عاشها الإمام (ع)، بعد رسول الله (ص):

وهي مرحلة إضطراره، بمسؤولية القيادة المباشرة للأمة الإسلامية، في جميع شؤونها الحياتية.

فقد اتسمت هذه المرحلة بأحداث غاية في الأهمية، على الصعيد الفكري، والاجتماعي، والسياسي، - كما سنرى.

والتاريخ الإسلامي، قد شهد عبر السنوات الخمس التي قضاها علي (ع) حاكماً للمسلمين، لونين من الأحداث:

أحدهما: يتعلق بما سجله الإمام (ع) على صفحات التاريخ الإنساني، من القيم الرفيعة، التي اتسمت بها سياسته الفاضلة، التي تبنّاها من أجل وضع حدود الله تعالى، وشريعته العظيمة، موضع التنفيذ، كاملة لا نقص فيها، ولا تحايل عليها، ولا تفريط، ولا أنصاف حلول، وعلى شتى الأصعدة الحياتية..

وثانيهما: ما يتعلق بردود الفعل السياسية التي قام بها بعض الناس والتي سجلها التاريخ الإسلامي.

وفي هذه الدراسة التي بين يديك - أيها القاريء العزيز - ستقرأ شطراً من سيرة أمير المؤمنين (ع)، وهو يعيد لجهاز الدولة مسؤولياته الحقيقية، في حماية رسالة الله تعالى، وإقامة حدودها في الحياة، والعمل على كل ما من شأنه توفير السعادة للإنسان، وبناء شخصيته وتحسينها..

وتقرأ عن علي (ع) كذلك، دوره في التصدي، سواء للذين نكثوا أو مرقوا أو قسطوا..

ومن خلال هذا الشطر من حياة الإمام أمير المؤمنين (ع)، ستقرأ شواهد من بنود عدالته الاجتماعية، التي جسدها في الواقع الاجتماعي، ومواقفه الإنسانية وشدة تمسكه بشريعة الله تبارك وتعالى.

والأمر الذي نسأل الله تعالى أن يوفق أمتنا الإسلامية للأخذ به، في حياتها العملية، هو الإلتزام الكامل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، كما جسدهما عملاً الإمام علي بن أبي طالب (ع).

الأمير الخليفة

بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان أجمعت الأمة على بيعة الإمام علي (ع) خليفة لها، وقد اجتاحت النفوس موجة من العاطفة نحوه، ولكنه رد الأمة بقوله: «... دعوني والتمسوا غيري»^(١).

إن علياً أبقى أن يكون أسيراً للعاطفة، فلعل نقمة بعض الناس على عثمان هي التي أججت نحوه العاطفة وشدت إليه التيار، وهو يريد من الأمة إقراراً إرادياً لإمامته..

ثم أن علياً ليس ممن تغريه المناصب وتستهويه الكراسي حتى يستجيب فور إقبال الناس عليه، فإن الأمرة كلها لا تساوي لديه جناح بعوضة. بل الدنيا كلها عنده كعقطة عنز - على حد تعبير له - والقيادة لا تساوي عنده شيئاً مذكوراً، إن لم يقم من خلالها الحق ويبطل الباطل.

ولهذا لم يستجب لضغط الجمهور في بادئ الأمر، قبل وضعهم أمام اختبار ليتأكد من مدى قدرة الناس على تلقي مناهجه والاستجابة

(١) نهج البلاغة ص ١٣٦، تبويب الدكتور صبحي الصالح.

لخططه إذا تسلم زمام الأمر.

فبالرغم من أن العاصمة المقدسة «المدينة المنورة» قد أصرت على اختياره على شكل تظاهرات حقيقية وتجمعات مكثفة حتى صارت المطالبة بقيادته إجماعية ولا جماعية، فإنه (ع) بقي عند موقفه المترث، بيد أن إصرار الأمة علي بيعته جعلته يطرح عليها شروطه لقبول الخلافة، فإن بايعته الأمة وفقاً لما يملي من شروط استجاب هو لمطلبها في استخلافه..

وحين أذاع بيانه المتضمن لشروطه «.. واعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب..»^(١) سارعت الأمة مذعنة لشروطه، ومدت يد البيعة على الطاعة إليه، فلبى مطلبها ليواجه مسؤولياته القيادة في الأمة الإسلامية على الصعيد الفكري والعملية..

وقد كانت من أولى مهامه (ع) أن يزيل صور الانحراف التي طرأت على الحياة الإسلامية، وأن يعود بالأمة إلى أصالة المنهج الإلهي.

ومن أجل ذلك كان لا بد أن يسير وفق منهاج محدد وشامل يلزم ولاته بتطبيقه.. وقد انصبّ منهاج حكومته على مواجهة المشاكل في الميادين الآتية.

١- الميدان السياسي:

لقد حدّد الإمام (ع) مواصفات ولاية الأمر وموظفي الدولة الذين يرشحهم الإسلام لإدارة شؤون الأمة الإسلامية ببيان أصدره (ع) جاء فيه:

(١) المصدر السابق والصفحة ذاتها.

«.. أنه لا ينبغي أن يكون الوالي علي الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ مآ دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة..»^(١).

في ضوء هذا التحديد الموضوعي لصفات كادر الموظفين الذين يقرهم الإسلام عمد الإمام علي (ع) إلى الإستغناء عن خدمات قسم من الولاة الذين كانوا يتولون أقاليم الدولة الإسلامية.. لأن علياً (ع) لو ساوم - كما يريد بعض المؤرخين - لتعذر على الأجيال المسلمة التماس الصورة الحقيقية للشريعة التي أبعث الله بها رسوله العظيم صلى الله عليه وآله وسلم

٢. الميدان الاقتصادي:

كما عمد الإمام علي (ع) إلى إصلاح الوضع السياسي والإداري كذلك فعل بالنسبة للوضع الاقتصادي فقد بادر فور تسلمه زمام الأمور مباشرة إلى إلغاء طريقة توزيع المال التي اعتمدت فيما سبق. فقد استبدل الإمام طريقة التمييز في العطاء بطريقة المساواة في التوزيع التي مارسها رسول الله (ص).

(١) نهج البلاغة رقم ١٣١ تبويب صبحي الصالح.

نهمته: شهوته الشديدة وحرصه المفرط.

الحائف: الجائر، الظالم.

الدول: المال، والحائف للدول معناه الذي يظلم في توزيع الأموال فيفضل جماعة على أخرى.

المقاطع: الحدود التي حددها الله تعالى.

فألغى الإمام (ع) كل أشكال التمييز في توزيع المال على الناس، مؤكداً أن التقوى والسابقة في الإسلام والجهاد، والصحبة للرسول (ص) أمور لا تمنح أصحابها مراتب أو مميزات في الدنيا، وإنما لتلك المزايا ثوابها عند الله في الآخرة، ومن كان له قدم في ذلك، فالله تعالى يتولى جزاءه، أما في هذه الدنيا فإن الناس سواسية في الحقوق المالية وأمام القضاء الإسلامي وفي الواجبات والتكاليف.

وقد تضمن بيانه التالي هذه الأفكار الجليلة العادلة: «ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرى أن الفضل له على سواه لصحبته فإن الفضل النير غداً عند الله وثوابه وأجره على الله..»

وأيما رجل استجاب لله وللرسول فصدق ملتناً ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار..»^(١).

وهكذا جسّد الإمام (ع) مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين يتمتعون بحق المواطنة الإسلامية دون تمييز لأي سبب من الأسباب.

هذه بعض ملامح العملية الإصلاحية التي قادها الإمام علي (ع) في شتى مرافق الحياة الإسلامية، في المال والحكم والإدارة وسواها.

(١) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ج ١ ص ٢٦٩.

منهاج الإصلاح

وضع الإمام (ع) خطته الإصلاحية الشاملة، وقد انصبَّ جلُّ اهتمام الإمام (ع) على إصلاح شؤون الإدارة والاقتصاد والحكم كما قدمنا.

ومن خلال ذلك العمل الإصلاحي الكبير حظيت الأمة عبر مسيرتها الجديدة التي اختطها لها أمير المؤمنين (ع)، بمعطيات جمّة ذات مردودات عظيمة لصالح الأمة والمسيرة بشكل عام، نذكر منها ما يلي:

أولاً: استعانة الإمام (ع) بجهاز من الولاة والموظفين لإدارة دفة الحياة الإسلامية يعدّ أفراده نموذجاً في مستواهم الروحي والفكري والالتزامي: كعثمان بن حنيف، ومحمد بن أبي بكر، ومالك الأشتر وسواهم.

على أن تلك النماذج الخيرة من الرجال، وإن كانوا في مستوى لائق في الفكر والعمل والقدرة الإدارية والقيادية، إلا أن الإمام (ع) قد زودهم بخط هادية ومناهج راشدة، يهتدون بها في حياتهم العملية، وفي علاقاتهم مع مختلف قطاعات الأمة التي يباشرون قيادتها.

فهو يلزم ولاته بالنصح لعباد الله، وإشاعة العدل بينهم ومعاملتهم باللين والحب، والتجاوز عن كل مظاهر الإستعلاء التي يعري بها المنصب غالباً والحيلولة دون تأثير ذوي النفوذ الإجتماعي في مسيرة العدالة الإسلامية على حساب القطاعات الإجتماعية الأخرى، ونحو ذلك من مستلزمات إشاعة العدل وإقامة الحق بين الناس.

وهذه نماذج من خططه في هذا المضمار:

«.. فأخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإن الله تعالى يسألكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يعذب فأنتم أظلم، وأن يعف فهو أكرم..»^(١).

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشياطين، واعلم إن ما قربك من الله يبعدك من النار، وما يبعدك من الله يقربك من النار»^(٢).

هذه صورة من توجيهات الإمام (ع) التي ألزم ولاته بالعمل على ضوئها في حياتهم العملية.

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن الإمام (ع) بالرغم من اهتمامه

(١) من عهده (ع) إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، نهج البلاغة ص ٣٨٣ تبويب د. صبح الصالح.

آس = ساو بينهم. حيفك لهم = ظلمك من أجلهم.

(٢) وصيته إلى عبد الله بن عباس حين استخلفه على البصرة نهج البلاغة، د. صبحي الصالح رقم ٧٦.

سع الناس = أشملهم برعايتك في كل جانب من جوانب الحياة.
طيرة = طيش وخفة.

بانتقاء العناصر الكفوءة والورعة فإنه كان يحرص على الإحاطة بأساليبهم في معاملة الأمة من خلال مراكزهم القيادية باستعانة بجهاز من الرقباء والعيون ليرى مدى طاعة الولاة وتنفيذهم لقواعد العدالة الإسلامية، فإذا بدا من أحدهم خطأ أو تقصير، بادر الإمام إلى تقويم سلوكه بالوسائل التربوية تارة وبالتهديد أو بالعزل إذا لزم الأمر، وهذه نماذج من وسائله تلك: -

فقد بلغه أن عثمان بن حنيف (رض) واليه على البصرة دعاه بعض شخصيات أهل البصرة إلى مأدبة، فخشى الإمام (ع) أن تستميله تلك الوسائل أو سواها فينحرف عن خط العدالة الإسلامية المرسوم فيميل في أحكامه أو يجور في قضائه ومعاملته للأمة، فكتب إليه كتاباً أجاء فيه: «أما بعد، يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم، عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقتضيه من هذا المقضم، فما اشبهه عليك علمه، فالفضة وما أيقنت بطيب وجوهه، فنل منه..»

7
ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرُونَ على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد...»^(١).

(١) نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح ص ٤١٦.

مأدبة طعام = طعام دعوة أو عرس.

يستطاب لك = يطلب لك طيبها.

الألوان = أصناف الطعام.

الجفان = جمع جفنة وهي القصعة.

وقد كتب إلى مصقلة الشيباني عامله على (أردشير خرّة) مهدداً ومتوعداً (بلغني عنك أمرٌ أن كنت فعلته، فقد أسخطت إلهك وعصيت أمامك: إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك عليّ هواناً، ولتخفنّ عندي' ميزاناً، فلا تستهن بحق ربك، ولا تطمح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً»^(١).

وكتب إلى أحد عماله يقول: «أما بعد فقد بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامك، وأخزيت أمانتك، بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فأرفع إليّ حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس..»^(٢).

وكما كان الإمام (ع) يخطط للولاة ويزودهم بنصائحه الهادية، كان يرسم الخطط كذلك لقادة جيوشه، ويوضح لهم معالم الطريق، وما ينبغي عليهم فعله عند مواجهة العدو.

-
- = العائل = المحتاح.
 المجفو = مطرود (من الجفاء).
 قضم = أكل بطرف أسنانه.
 المقضم = المأكّل.
 الفظة = اطرحه، لا تأكله.
 الطمر = الثوب البالي.
 طعمه = مايطعمه ويفطر عليه.
 قرص = رغيف خبز.
 السداد = الإحتراز من الخطأ.

(١) المرجع السابق ص ٤١٥ أعتامك: اختارك وأصله أخذ العيمة: وهي خيار المال.
 (٢) المرجع السابق ص ٤١٢ جردت الأرض: إشارة إلى الخيانة بتخريب الأراضي.

فكان (ع) ينهاهم عن البغي، ويأمرهم بعدم إثارة الحرب من جانبهم، وإنما ينبغي التسلح بالصبر وضبط النفس، وأن يكونوا في بداية المواجهة كما لو كانوا مدافعين فحسب، فإذا اعتدي عليهم فقد قامت الحجة لصد العدوان، فإذا قدر وانتصروا على عدوهم فلا يباح أن تحملهم نشوة الظفر على عدوهم إلى ملاحقة جنوده الهاربين من القتال، أو الذي لا يملك منهم سلاحاً يدافع به عن نفسه، كما لا يجوز قتل الجرحى، أو الإساءة إلى النساء، وأن بدأن الإساءة بسب أو شتم أو نحوه.

وهذه بعض وصايا (ع) لجيوشه:

«.. لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تصيبوا معوراً^(١) ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم..»^(٢).

«.. ألا وإن لكم عندي ألا أحتجز دونكم سراً إلا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، ولا أؤخر لكم حقاً عن محله، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت الله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة، وألاً تنكصوا عن دعوة ولا تفرطوا في صلاح وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق..»^(٣).

وبالنظر للأهمية البالغة التي يحتلها جهاز جباية الأموال في

(١) المعور: الذي عجز عن حماية نفسه أثناء الحرب.

(٢) نهج البلاغة، وصيته (ع) رقم ١٤ ص ٣٧٣، د. صبحي الصالح.

(٣) نفس المصدر من كتاب له إلى أمراء جيشه رقم ٥٠ ص ٤٢٤.

الدولة الإسلامية حيث تشكل الحقوق العامة في ملكية الأفراد عنصراً هاماً من عناصر الإقتصاد الإسلامي، فإن حق الجماعة في الملكيات الخاصة يوفر ضماناً كبيراً لمساعدة الدولة الإسلامية على تغطية نفقاتها الكبرى على الصعيد الاجتماعي والعسكري وغيرهما من جوانب الحياة العامة. . أقول بالنظر لأهمية جهاز الجباية هذا فقد أولاه الإمام (ع) عناية فائقة لا من أجل أن يجمع أكبر نصيب من المال أبداً، وإنما من أجل أن ينخرط - ذلك الجهاز - في مسيرة العدالة الإسلامية المثلى التي جسدها الإمام (ع) في حياة الناس. . فكان الإمام حريصاً على أن يلتزم موظفوا ذلك الجهاز بأقصى درجات العدل والفضيلة والنبل، والشعور بالمسؤولية فليست مهمتهم في نظر الإمام (ع) أن يجمعوا المال من أجل المال، وإنما ينبغي عليهم أن يلتزموا الحق في تعاملهم مع الأمة وأن يعكسوا عدالة الإسلام لمن يلتقون بهم من الناس، فلا ينبغي أن يغضبوا أحداً من الناس، ولا يسيئوا معاملة أحد، ولا يضرّبوا إنساناً من أجل درهم مثلاً، ولا يجوز أن يعتدوا على مال امرئ من المسلمين أو من غيرهم ممن يتمتع بحق التبعية للدولة الإسلامية.

. كما لا يجوز أبداً أن يبيعوا كسوة إنسان أو دابته من أجل استيفاء المال، ولا يحق لأحد الجباة أن يردع أحداً أو يستوفي أكثر من حق الله في ماله، ولا ينبغي أن يستعلي على الناس أو ييخل عليهم بالتحية أو اللطف والمرونة في معاملتهم إلى غير ذلك من وصاياه (ع).

وهذه صور من مناهجه في هذا المضمار:

« . . فإنكم خزان الرعية ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة ولا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها ولا عبداً، ولا

تضربنَّ أحداً سوطاً لمكان درهم ولا تمسَّنَّ مال أحد من الناس مصلً^١
ولا معاهد..»^(١).

«.. انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعنَّ مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخذج^(٢) بالتحية لهم. ثم تقول: عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل الله في أموالكم من حق فتأدوه إلى وليه..؟»^(٣).

ثانياً - تجسيد المخطط الإسلامي للعدالة الاجتماعية بأجلى صورة وأدق تفصيلاته.

إذا كانت جميع جوانب الجهاز الحكومي في الدولة الإسلامية قد تناولتها يد الإصلاح، فحققت أرقى النماذج التي يصبو إليها الإنسان، فإن الإمام (ع) قد خطا في سبيل تحقيق أفضل صورة للعدالة الاجتماعية وفقاً للتصورات الإسلامية التفصيلية.

فقد شهد المجتمع الإسلامي بجميع قطاعاته وقواه عدالة رائدة كالتى شهدها أيام رسول الله (ص) في منطلقاتها وأبعادها.

وفيما يلي شواهد من تلك التجربة التاريخية المشعة التي تفيأت الأمة ظلالها:

(١) نهج البلاغة من كتاب له إلى أعماله على الخراج رقم ٥١ تبويب د. صبحي الصالح.

(٢) لا تخذع بالتحية = لا تبخل بالسلام عليهم والسؤال عن أحوالهم.

(٣) نهج البلاغة كتاب لمن يستعمله على الصدقات رقم ٢٥.

أ. رفق وتعاهد:

فقد شهدت قطاعات الأمة جميعاً صوراً من التعاهد لأمرها والرفق بها ورعاية شؤونها، والتسوية في العطاء بين جميع حملة التابعة للدولة الإسلامية التي تجسدها هذه النصوص: «المال مال الله يقسم بينكم بالسوية لأفضل لأحد على أحد».

وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزائمه حتى أوردته منهل الحق وإن كان كارهاً^(١).

أقول إلى جانب هذا وذاك، شهدت الأمة التي قادها أمير المؤمنين (ع) بمختلف قطاعاتها من ألوان التدبير لشؤونها، والرعاية لأمرها، والحذب عليها ما حقق لها القوة والسعادة وهذه صور منها:
عن الحَكَم قال :

شهدت علياً، وأتي له بزقاق من عسل، فدعا اليتامى وقال: ذوقوا، والعقوا، حتى تمنيت أني يتيم، فقسمة بين الناس وبقي منه زق، فأمر أن يسقاه أهل المسجد^(٢).

وعن هارون بن عنترة عن زاذان قال: انطلقت مع قنبر غلام علي (ع) فإذا هو يقول: قم يا أمير المؤمنين فقد خبأت لك خبيثاً.

قال (ع): وما هو، ويحك!!

قال: قم معي..

فقام فانطلق به إلى بيته، وإذا بغرارة مملوءة ما جامات ذهباً

(١) روائع نهج إبلاغة = جورج جرداق ص ١٦٣.

الخزامة = حلقة من شعر توضع في ورة أنف البعير يشد بها زمامه ويسهل قياده.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ١٣٦.

وفضيه، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك لا تترك شيئاً إلا قسمته فادخرت لك هذا من بيت المال.

فقال علي (ع): ويحك يا قنبر، لقد أحبيت أن تدخل بيتي ناراً عظيمة ثم سل سيفه، وضربها ضربات كثيرة، فانتشرت.. ثم دعا بالناس، فقال: اقسموه بالحصص، ثم قام إلى بيت المال، فقسم ما وجد فيه، ثم رأى في البيت إبراً ومسال فقال: ولتقسموا هذا..»^(١).

وعن الحَكَم قال: إن علياً قسم فيهم الرِّمَّان حتى أصاب مسجدهم سبع رمانات، وقال: أيها الناس أنه يأتينا أشياء نستكثرها إذا رأيناها، ونستقلها إذا قسمناها، وإنا قد قسمنا كل شيء أتاناً.

قال: وأنته صفائح فضة فكسرها، وقسمها بيننا.

وعن علي بن ربيعة قال: جاء ابن التياح إلى علي بن أبي طالب (ع) فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء. فقال علي: الله أكبر، ثم قام متوكئاً على يد ابن التياح، فدخل بيت المال وهو يقول: -

هذا جنائي وخياره فيه وكل جان يسده إلى فيه^(٢)
ثم نودي في الناس، فأعطى - علي - جميع ما في بيت المال وهو يقول: «يا بيضاء، ويا صفراء، غري غيري».

(١) شرح النهج تح / محمد أبو الفضل إبراهيم ط / ١٣٩٧٨ هـ ج ١، ص ١٩٨ و ١٩٩.

(٢) مثل يضرب، أراد به الإمام (ع) أنه لم يصب شيئاً من مال المسلمين بل وضعه في مواضعه. تذكره.

الخواص: سبط ابن الجوزي ص ١١٧.

حتى لم يبق فيه درهم ولا دينار، ثم أمر بنضحه، فصلى فيه ركعتين (ع).

وكان لشدة حرص الإمام (ع) على الأمة لرفع غائلة الفقر والظلم عنها أنه التزم السير - عبر أيام خلافته عليها - وفقاً للنهج الآتي: «... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع. أو أبيت مبطاناً، وحولي بطون غرثي، وأكباد حري؟

أأقع من نفسي بأن يقال هذا: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟»^(١).

ب. رقابة دقيقة لوضع السوق:

ولقد كان الإمام علي (ع) حريصاً على تجسيد العدالة الاقتصادية في كافة مرافق الحياة الإنسانية ومن أجل ذلك فقد التزم خطة لمراقبة السوق من ناحية البيع والشراء وطبيعة ما يعرض للبيع، للحيلولة دون التطفيف في المكايل والتلاعب بالأسعار أو الغش، فعن الإمام الباقر (ع) قال «كان أمير المؤمنين (ع) كل بكرة يطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدرة على عاتقه، وكان لها طرفان، وكانت تسمى السبيبة، فيقف على سوق فينادي:

يا معشر التجار قدموا الإستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزينوا بالحلم، وتناهاوا عن الكذب، واليمين، وتجاؤا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا و«أوفوا الميكال والميزان

(١) نهج البلاغة من كتاب له إلى عثمان بن حنيف رقم ٤٥ ص ٤١٨.

بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين»^(١).

وعن أبي النوار قال:

رأيت علياً (ع) وقف على خياط، فقال له: يا خياط صلِّب الخيط، ودقق الدرز، وقارب الغرز، فأني سمعت رسول الله (ص) يقول (يؤتى يوم القيامة بالخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاطه، وخان فيه، فيفتضح على رؤوس الإشهاد).

ثم قال: «يا خياط إياك والفضلات والسقطات فإن صاحب الثوب أحق بها..»^(٢).

هكذا جسد الإمام أمير المؤمنين (ع) المخطط الإسلامي للعدالة الاجتماعية بأدق صورها، وهكذا عامل الأمة بالرفق والحب فعاش آمالها وآلامها حتى قطفت أروع ثمارت العدل في تاريخها كما كانت في عهد رسول الله (ص) سواء بسواء.

ج - تبين الإمام علي (ع) سياسة نكران الذات لصالح الأمة وذلك بالزهد الصادق بكل ما يطمع به الطامعون من مال وملذات وزخرف، فلقد عاش أمير المؤمنين في بيت متواضع لا يختلف عما يسكنه فقراء الأمة، وكان يأكل الشعير تطحنه امرأته أو يطحنه بيده سواء في ذلك قبل خلافته، وبعدها:

وكان يلبس أحشن لباس وأبسطه وكان مبدؤه الثابت في هذا

المضمار:

(١) من سورة هود / ٨٥، راجع بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٠٤ من آمالي الصدوق وتذكرة الخواص ص ١٣٤ وأنساب الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ١٢٩ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي ص ١٢٥.

«... ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه»، «فوالله، ما كنت من دنياكم تبرأ، ولا ادخرت من غنائمها وفرأ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه كقوت أتان دبيرة، ولهي في عيني أو هن من عفصة مقرة»^(١).

وبمقدورنا أن نلمس سياسة الإمام (ع) هذه مع نفسه من خلال المصاديق التالية:

عن هارون بن عنترة عن أبيه قال:
دخلت على علي بالخورنق، وهو في فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة.

فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك!!

فقال (ع) والله ما أرزؤكم - أنقصكم - شيئاً، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة»^(٢).

وقد خاطبه عاصم بن زياد يوماً بقوله «يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملابسك وجشوبة مأكلك!». فأجابه علي (ع):

(١) كتابه لعثمان بن حنيف نهج البلاغة رقم النص ٤٥، التبر: فتات الذهب والفضة قبل الصياغة.

الوفر: المال الطمر: الثوب الخلق البالي.

أتان دبيرة: التي عقر ظهرها فقل أكلها.

(٢) تذكرة الخواص لسبط بن الجوزي ص ١٢١ وعبقريّة الإمام للعقاد ص ١٦ ط. بيروت ١٩٦٧.

«ويحك أني لست كأنت. إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس كيلاً يتبَّع بالفقير فقره»^(١).

وعن سويد بن غفلة قال دخلت على علي (ع) يوماً وليس في داره سوى حصير رث وهو جالس عليه.

فقلت: يا أمير المؤمنين أنت ملك المسلمين والحاكم عليهم وعلى بيت المال، وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير؟

قال (ع): يا سويد إن البيت لا يتأث في دار النقلة وأماننا دار المقامة، وقد نقلنا إليها متاعنا، ونحن منقلبون إليها عن قريب^(٢).

وها هو علي يخرج سيفه لبيعه في السوق كي يشتري بثمنه إزاراً، وهو أمير المؤمنين وزعيم الأمة الإسلامية الذي تجبى إليه الأموال من جميع بقاع العالم الإسلامي.

فعن أبي رجاء قال: أخرج علي (ع) سيفاً إلى السوق فقال: «من يشتري مني هذا؟ فوالذي نفس علي بيده لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»!!!

فقلت له: أنا أبيعك إزاراً وأنسوك ثمنه إلى عطائك، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه، فلما قبض عطاءه دفع إليّ ثم الإزار^(٣).

إنه (ع) لا يأخذ من فيثهم شيئاً، وإن قُدِّر له الخروج من بلدهم، فلا يخرج إلا بالذي جاء به من المدينة المنورة: راحلته ورحله وغلّامه.

(١) نهج البلاغة تبويب د. صبحي الصالح رقم ٢٠٩ ص ٣٢٤.

يتبَّع: يستبد به ألم الفقر.

(٢) تذكرة الخواص ص ٦٨.

(٣) شرح في نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠.

فعن بكر بن عيسى قال: كان علي (ع) يقول: «يا أهل الكوفة، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي، ورحلي وغلامي فلان، فأنا خائن».

فكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع، وكان يطعم الناس منها الخبز واللحم، ويأكل هو الثريد بالزيت.

ولشدة حرصه (ع) على سلوك سبيل رسول الله (ص) في عدله وزهده أشار عقبة بن علقمة قال دخلت على علي (ع) فإذا بين يديه لبن حامض، أذنتي حموضته، وكسر يابس.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أأأكل مثل هذا؟

فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيس من هذا، ويلبس أخشن من هذا، وأشار إلى ثيابه، فإذا أنا لم آخذ بما أخذ به خفت ألا الحق به^(١).

ولعظيم إيثاره للأمة على نفسه ما رواه عبد الله بن الحسين بن الحسن (ع) قال: أعتق علي (ع) في حياة رسول الله (ص) ألف مملوك مما عملت يده، وعرق جبينه.

ولقد ولي الخلافة، وأتته الأموال فما كان حلواه إلا التمر ولا ثيابه إلا الكرابيس^(٢).

وعن سفيان الثوري عن عمر بن قيس قال: روي علي (ع) إزار مرقوع، فعوتب في ذلك، فقال:

«يخشع له القلب، ويتقدي به المؤمن»^(٣).

(١) المرجع السابق ص ٢٠١.

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٢.

(٣) تذكرة الخواص ص ١٢١.

ولقد بلغ في شدة زهده (ع) ونكرانه لذاته ابتغاء لوجه الله تعالى ما يتجلى عبر عبارته «... والله لقد رقت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها، ولقد قيل لي: ألا تستبدل بها غيرها؟ فقلت للقائل: «ويحك أعزب، فعند الصباح يحمد القوم السري»^(١).

هذه بعض بنود منهاج علي (ع) مع نفسه وهي تمثل إحدى روافد العدالة الإسلامية التي جسدها الإمام (ع) في دنيا الناس أسوة برسول الله (ص).

د- مساواة أهل بيته بسائر الناس:

أما منهاج أمير المؤمنين (ع) الذي سلكه في أهل بيته وقرباته فلم يكن بعيداً عن منهاجه مع نفسه إلا من حيث الدرجة، فقد كان مبنياً على أساس مساواتهم بالأمة في الحقوق والواجبات، بل إن الذي يتحملونه من مهام من أجل حماية الرسالة والمسيرة أكثر بكثير مما ينالون من حقوق...

كان الإمام (ع) حريصاً على معاملة ذويه في مسألة الحقوق كما لو كانوا من عامة الناس، فلا يفضلهم بعتاء، ولا يميزهم بحق، فلقد سلك معهم أسلوب التدريب والإعداد للعمل بمنهاجه معهم، بل كان يبدو شديداً مع بعضهم من أجل أن ينتهج الخط الذي رسمه الإمام (ع) لمتعلقيه وأهل قرابته.

وهاك صوراً من منهاجه ذلك:

قال مسلم صاحب الحنا:

«لما فرغ علي (ع) من أهل الجمل أتى الكوفة، ودخل بيت

(١) المرجع السابق ص ١٢٥. المدرعة: ثوب صوفي غليظ.

المال، ثم قال: يا مال غرُّ غيري، ثم قسمه بيننا، ثم جاءت ابنة للحسن أو للحسين (ع) فتناولت منه شيئاً، فسعى وراءها ففك يدها ونزعه منها، فقلنا: يا أمير المؤمنين إن لها فيه حقاً، قال (ع) إذا أخذ أبوها حقه فليعطها ما شاء»^(١).

وروى هارون بن سعيد قال: قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لعلي (ع): يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أن نفقة، فوالله ما لي نفقة إلا أن أبيع دابتي!!

فقال الإمام (ع) لا والله، ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك...^(٢).

وقد جاءه أخوه عقيل - وكان ضريراً - يوماً يطلب صاعاً من القمح من بيت مال المسلمين - زيادة على حقه - وظل يكرر طلبه على علي (ع) فما كان من الإمام أمير المؤمنين إلا وأحمى له حديدة على النار وأدناها منه، ففزع منها عقيل ثم وعظه (يا عقيل أثن من حديدة أحماها أنسانها للعبة وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه، أثن من الأذى ولا أثن من لظى...)^(٣).

وعن أبي صادق عن علي (ع): إنه تزوج ليلى، فجعلت له حجلة، فهتكها، وقال:

حسب آل علي ما هم فيه^(٤).

وعن الحسن بن صالح بن حي قال:

(١) أنساب الأشراف ج ٢ ص ١٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠.

(٣) و (٤) بحار الأنوار ج ٤٠ باب ٩٨ ومناقب آل أبي طالب ج ١ في المسابقة بالزهد.

حجلة: ستر يضرب للعروس في الليل.

- بلغني أن علياً (ع) تزوج امرأة فنجدت - زينت - له بيتاً، فأبى أن يدخله^(١).

وعن كلاب بن علي العامري قال:

زفت عمتي إلى علي (ع) على حمار بأكاف تحتها قطيفة، وخلفها قفة معلقة^(٢)!!

هكذا كان منهج علي (ع) مع أهل بيته وذوي قرابته لا يفرط من أجلهم بحق من حقوق المسلمين، بل يعمل كل ما من شأنه على رفع مستواهم باتجاه مبادئه في الزهد، ونكران الذات في سبيل الله تعالى، ولصالح مجموع الأمة.

ولقد كان منهجه واضحاً كل الوضوح لا لبس فيه ولا غموض ولا يخضع لعاطفة أو مساومة أبداً «... والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً أو أجز في الإغلال مصفداً أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام. وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها...»^(٣).

وهذا السبيل الذي اختاره الإمام (ع) إنما يمثل أحد مبادئ العدل الاجتماعي الشامل الذي حرص أمير المؤمنين (ع) على تجسيده واقعاً حياً في دنيا الناس.

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

أكاف: كساء يوضع على ظهر الدابة، الفقه: إناء من خوص النخل.

(٣) نهج البلاغة رقم النص ٢٢٤.

سياسة رد الفهل

وبسبب ما ألفه رجالات قريش من أثرة وامتيازات لا حصر لها فقد كبر عليهم أن ينهج الإمام (ع) نهج التسوية في الحقوق - كما أمر الله سبحانه .

فقد أنكر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله على الإمام (ع) سياسته تلك واعتبرها مخالفة للنهج الذي ألفه الناس .

فقال لهما الإمام (ع) : ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي ؟

قالا : إنك جعلت حقنا في القسّم كحق غيرنا ، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله علينا بأسيا فانا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا وظهرت عليه دعوتنا ، وأخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً^(١) .

فقال الإمام (ع) لهما : «لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً ألا

(١) علي بن أبي طالب - نظرة عصرية جديدة / تأليف د. محمد أحمد خلف الله وعدد من الكتاب ص ٣٢ .

تخبراني أي شيء كان لكما فيه حق دفعتمكما عنه؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه إلى حد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته، أم أخطأت بابه؟

والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية أربة، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتوني عليها فلما أفضت إليّ نظرت إلى كتاب الله، وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به، فاتبعته، وما استسنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وأخواني من المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما، ولا عن غيركما.

وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة - التسوية في العطاء - فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي، ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمه، وأمضى فيه حكمه، فليس لكما، والله، عندي ولا لغيركما في هذا عتبي، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر... رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فردّه، وكان عوناً بالحق على صاحبه...»^(١).

وهكذا تختلف المنطلقات والمفاهيم، ينطلق علي (ع) مما يأمر به الله تعالى ورسوله (ص) بينما تنطلق المعارضة مما توحى به مصالحها.

وشتان بين منطلق يرمي إلى تحقيق متطلبات الرسالة ومصلحة مجموع الأمة، ومنطلق مادي لا يرى غير المصلحة الذاتية.

(١) نهج البلاغة رقم النص ٢٠٥ د. صبحي الصالح ط ١ بيروت ١٩٦٧.

موقف معاوية:

وما أن تناقلت الأنباء أمر إستخلاف الإمام علي (ع) ونهوضه بأعباء قيادة الأمة إلا وفزع معاوية بن أبي سفيان معلناً معارضته.

وفي الأثناء ورد عليه كتاب من ابن العاص يطلعه على حقيقة الموقف في عاصمة رسول الله (ص).

«من عمرو بن العاص إلى معاوية ابن أبي سفيان: أما بعد، ما كنت صانعاً فاصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل ما تملكه كما تقشر عن العصا لحاها..»^(١).

وها هو الإمام (ع) يكتب لمعاوية كتاباً يستقدمه فيه، بيد أنه لم يستجب للإمام (ع) بل ولم يرد على كتابه^(٢).

وبعد مضي ثلاثة شهور على مقتل عثمان، وقيام الإمام علي (ع) بالأمر يشهر معاوية سلاح المطالبة بدم عثمان، متخذاً منه ذريعة للخروج على إمام زمانه.

وقد بدأت معارضته بنشر ثوب عثمان الدامي في مسجد دمشق وشعيرات من لحيته، وقد جمد عليها الدم، وراح يستشير أهل الشام للنهوض من أجل عثمان والانتقام ممن قتله، ومن ثم أرسل رسولاً إلى الإمام (ع) حتى إذا وصل الرسول إلى المدينة المنورة جعل يسير في دروبها، وهو يحمل صحيفة مختومة مكتوباً عليها من «معاوية إلى علي» وهو عنوان يثير الدهشة لدى الناس فهو خال من كل لياقة وكياسة، كما يشير إلى أن مرسله لا يحمل إلى زعيم المسلمين أي

(١) الإمام علي وفضائله ص ١٧٥، دار مكتبة الحياة / بيروت.

(٢) الفصول المهمة / لابن الصباغ المالكي ص ٥٠ ويراجع نص كتاب الإمام (ع) في نهج البلاغة رقم ٧٥ تبويب د. صبح الصالح «باب الكتب» ص ٤٦٤.

شعور بالإحترام والتقدير.

وقض الإمام (ع) صحيفة معاوية، فوجدها بيضاء لا حرف فيها
فسأل رسول معاوية: ما وراءك؟

قال بعد أن أستأمن الإمام (ع): إني تركت ورائي أقواماً يقولون
لا نرضى إلا بالقود.

قال الإمام (ع): ممن؟

قال: يقولون من خيط رقبة علي، وتركت ستين ألف شيخ سيكون
تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر مسجد دمشق،
وأصابع زوجته نائلة معلقة فيه.

فقال الإمام: أمني يطلبون دم عثمان، اللهم إني أبرأ إليك من
دم عثمان. «(١)».

ثم أمر الإمام (ع) رسول الشام أن يغادر بعد أن منحه الأمان.
ومنذ ذلك التاريخ بادر الإمام (ع) بتجهيز جيشه لإخماد حركة
البغاة التي قادها معاوية في الشام.
خلفيات المطالبة بدم عثمان:

ولنا أن نتساءل قبل أن نمضي في حديثنا قديماً، هل كانت
الأطراف في كل من الشام والبصرة صادقة في إدعاء المطالبة بدم
الخليفة الثالث؟

وللإجابة على هذا السؤال الذي يفرض نفسه على الكاتب
والقارئ معاً في هذه المسألة: لا بد من الرجوع إلى مواقف تلك

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٥١.

الأطراف جميعاً أيام الثورة التي تمخض عنها مقتل عثمان .

فقد كان معاوية يعلم بتفاصيل ما يجري للخليفة في المدينة ، وقد استغاث به الخليفة أيام الحصار فلم يغنه بشيء حتى أرسل معاوية جيشاً إلى المدينة بقيادة يزيد بن أسد القسري وقال له : «إذا أتيت ذا خُشْب - منطقة خارج المدينة - فأقم بها ولا تتجاوزها، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب»^(١).

فأقام القسري بجيشه في المكان الذي حدده معاوية ، فلما قتل عثمان استدعى معاوية الجيش وقائده إلى الشام .

هذه بعض مواقف معاوية ، من عثمان بن عفان أيام حكمه ، ومن هنا فإن شعار المطالبة بدم الخليفة القتيل من قبله كان مجرد وسيلة لإستدرار العطف وتجميع الأنصار: فدوافعه الحقيقية إنما تكمن في نغمته على سياسة علي (ع) الإصلاحية والتي كانت تمسّ مصالح بعض طبقات المجتمع بشكل أو بآخر .

وقد أفصح الإمام (ع) عن موقفه إزاء مقتل الخليفة عثمان بقوله : «اللهم إني أبرأ من دم عثمان ، ما نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد أمراً بلغه»^(٢).

ويتضح موقف الإمام (ع) كذلك من كتاب له إلى معاوية حيث جاء فيه «وقد أكرت في قتلة عثمان ، فأدخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأما تلك التي تريدها فخدعة . .»^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ١٥٤ «شرح كتاب الإمام (ع) إلى معاوية رقم ٣٧ .

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٥١ .

(٣) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

موقف الامام علي (ع) ايام الازمة:

ومن الضروري جداً أن نشير ولو بشكل مقتضب إلى موقف الإمام (ع) أيام الأزمة التي تعرضت لها الخلافة في عهد عثمان: فحين هاج الناس في عهد عثمان حاول الإمام (ع) أن يقنع الخليفة بضرورة الإصلاح، وجرى بينهما حديث بهذا الشأن، ومما نصح به الإمام (ع) الخليفة قوله:

«... وإني أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أموراً عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يمجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً، فلا تكونن لمروان سيقّة يسوقك حيث يشاء بعد جلال السن وتقضي العمر...»^(١).

فقال له عثمان: «كلم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مضالمهم»^(٢).

فقال الإمام (ع): «ما كان بالمدينة، فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك إليه»^(٣).

قال الخليفة: نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام. فخرج الإمام إلى الناس، وأخبرهم بما وعد به الخليفة، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً وأشهد عليه قوماً من وجوه المهاجرين

(١) (٢) و (٣) نهج البلاغة / تبويب د. صبحي الصالح ص ٢٣٥ رقم ١٦٤ .

والأنصار»^(١).

وحيث لم يتيسر لعثمان أن يبرّ بوعده للناس تأزم الموقف مجدداً...

وقد زاد في حراجة الموقف عثور المصريين الثوار على بريد من عثمان إلى عامل مصر يأمره بمعاقة قادة الثائرين بالقتل^(٢) ومعاقة كل متظلم بالسجن ونحو ذلك..

فحوصر الخليفة من قبل المهاجمين والطامعين في الخلافة معاً حتى قطع عنه الماء - كما قدمنا - فاستنجد بالإمام علي (ع) فأسرع لإنقاذه وأرغم طلحة وسواه، وأدخل إليه الماء^(٣).

وبعد أن طال حصار الخليفة - أربعين يوماً - طلب بعض الناس من علي (ع) أن يصلي بهم، فأبى فتولى طلحة إمامة الصلاة..!

هذه بعض مواقف الإمام (ع) من أجل عثمان... وبالرغم من تلك المواقف النبيلة التي وقفها الإمام (ع) من أجل الخليفة فإنه لا يعني بحال أن الإمام كان راضياً عن سياسة الخليفة في المال والإدارة^(٤).

بيد أن الإمام (ع) كان يرى في قتل عثمان خطراً يهدد الأمة بالنظر لما يعقبه من تمزق في الصف الإسلامي، وتجرؤ من لدن المتربصين بالإسلام والمسلمين.

الأمر الذي وقع فعلاً بعد مقتل الخليفة مباشرة.

(١) الطبري وابن الأثير وغيرهما (نقلًا عن أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ٩٨).

(٢) الطبري وأنساب الأشراف والمعارف لابن قتيبة وسواهم «نقلًا عن المصدر السابق ص ٩٩».

(٣) تاريخ الطبري وأنساب الأشراف للبلاذري «نقلًا عن المصدر السابق ص ١١٣».

(٤) شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٥ - ٦.

حرب البطرة

على الرغم من أن طلحة والزبير كانا من أشد الناقمين على سياسة عثمان ومع أنهما سبقا الناس في البيعة للإمام علي (ع) بعد قتل عثمان، فإن الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام (ع) في الحياة الإسلامية لم تجد هوى في نفسيهما فبدأ في العمل للخروج على الإمام (ع) وإثارة المسلمين عليه، فكانت حصيلة ذلك فتنة كبدت الأمة خسارة فادحة.

وقد بذل الإمام (ع) جهداً كبيراً لتحاشي هذه الفتنة فلم يأكل جهداً في بذل النصيح لهم وتحميلهم مغبة ما سيكون إذا نشبت الحرب، وهذه نصيحته (ع) لهما:

«أما بعد يا طلحة، ويا زبير، فقد علمتما أنني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى أكرهوني، وأنتما أول من بادر إلى بيعتي، ولم تدخلا في هذا الأمر، بسلطان غالب، ولا لعرض حاضر، وأنت يا زبير، ففارس قریش، وأنت يا طلحة فشيخ المهاجرين، ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع لكما من خروجكما منه بعد إقراركما، ألا وهؤلاء بنو عثمان هم أولياؤه المطالبون بدمه،

وأنتما رجلا من المهاجرين، وقد أخرجتما أمكما من بيتها الذي أمرها الله تعالى أن تقر فيه، والله حسبكما..»^(١).

وفي البصرة استمر الإمام (ع) يبذل نصحه من أجل حقن الدماء، فأرسل للناكثين رسولا يدعوهم للصلح ورأب الصدع.

كما التقى بالزبير وذكره بأمور جرت لهما في عهد رسول الله (ص) منها: ما حملك على ما صنعت يا زبير؟

قال: حملني على ذلك الطلب بدم عثمان!

فقال الإمام: إن أنصفت نفسك، أنت وأصحابك قتلتموه، ولكني أنشدك الله يا زبير أما تذكر، قال لك رسول الله (ص): يا زبير أتحب علياً، فقلت، وما يمنعني من حبه وهو ابن خالي.

فقال لك: أما أنك تخرج عليه وأنت له ظالم!

فقال الزبير: اللهم بلى، قد كان ذلك.

فقال الإمام: «أنشدك الله أتذكر يوم جاء رسول الله (ص) من عند بني عوف، وأنت معه، وهو أخذ بيدك فاستقبلته، فسلمت عليه، فضحك في وجهي، وضحكت إليه. فقلت أنت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال (ص) لك: مهلاً يا زبير ليس بعلي زهو، ولتخرجن عليه يوماً وأنت ظالم له؟

قال الزبير: اللهم بلى، ولكني قد نسيت ذلك، وبعد أن ذكرتنه لأنصرفن»^(٢).

(١) الفصول المهمة ص ٥٥ لابن الصباغ المالكي.

(٢) الفصول المهمة في معرفة الأئمة / ابن الصباغ المالكي ص ٦٣ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٧٧، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ١٦٧.

وقد عزم الزبير على اعتزال الناس، غير أن ابنه عبد الله وصفه بالجبن أن هو أقدم على ذلك.

وهكذا تفجّر الموقف واندلع القتال بين المعسكرين..

الموقف الانساني:

غير أن الإمام ظل ملتزماً بالصبر والأناة وبما امتاز به من الروح الإنسانية الرفيعة، فها هو يخاطب جيشه - بعد اندلاع القتال، وبعد أن ذهبت كل محاولاته لإصلاح الموقف سدى - ملتزماً أصحابه بأرفع الأخلاق التي يريد الله سبحانه من المسلم الإلتزام بها في ساحة الحرب أيها الناس أنشدكم الله أن لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا سبياً، ولا تأخذوا سلاحاً، ولا متاعاً^(١). طارحاً بذلك أحكام شريعة الله تعالى في البغاة.

ثم دعا ربه الأعلى سبحانه مستجيراً من الفتنة التي فجرها الناكثون معلناً براءته منها أمام الله الكبير المتعال.

فبعد أن رفع يديه إلى السماء قال «اللهم إن طلحة والزبير أعطياني صفقة أيديهما طائعين، ثم نصبا إلى الحرب ظاهرين، اللهم، فأكفنيهما بما شئت وكيف شئت..»^(٢).

وقد أسفرت المعركة عن إنتصار ساحق لمعسكر الإمام (ع) فأعلن الإمام العفو العام عن جميع المشتركين في حربه:

«ألا لا يجهز على جريح، ولا يتبع مولٍ، ولا يطعن في وجه مدبر، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابيه فهو آمن، ولا

(١) الفصول المهمة / للمالكي ص ٦٢ وتذكرة سبط ابن الجوزي.

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٦٢، وتذكرة سبط ابن الجوزي.

يستحلن فرج ولا مال، وانظروا ما حضر به الحرب من آنية فاقبضوه، وما كان سوى ذلك، فهو لو ورثته، ولا يطلبن عبد خارج من المعسكر، وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم، وليس لكم أم ولد - الأمة استولدت ذكراً أو أنثى - والمواييث على فريضة الله، وأي امرأة قتل زوجها، فلتعتد أربعة أشهر وعشراً.

فقال بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم؟

فقال (ع): كذلك السيرة في أهل القبلة^(١).

بيد أن بعضاً من جيشه كانوا يرغبون الحصول على مغانم أكبر مما حدده الإمام (ع).

فقام له رجلاً قائلاً: يا أمير المؤمنين، والله ما قسمت بالسوية ولا عدلت في الرعية!

قال الإمام (ع): ولم؟ ويحك!!

قال: لأنك قسمت ما في المعسكر وتركت الأموال والنساء والذرية!!

فقال له الإمام موضحاً فلسفة ذلك الموقف الإنساني الذي التزمه:

يا أخا بكر: إنك امرؤ ضعيف الرأي أو ما علمت أنا لا نأخذ الصغير بذنوب الكبير، وأن الأموال كانت لهم قبل الفرقة وتزوجوا على رشد، وولدوا على الفطرة، وإنما لكم ما حوى عسكرهم، وما كان في دورهم، فهو ميراث لذريتهم، فإن عدا علينا أحد منهم أخذناه بذنبه،

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة ق ١ ص ١٨١، نقلاً عن يعقوبي وكنز العمال.

وإن كَفَّ لم نحمل عليه ذنب غيره.

يا أخا بكر: لقد حكمت فيهم بحكم رسول الله (ص) في أهل مكة: قسم ما حوى العسكر، ولم يعرض لما سوى ذلك وإنما اتبعت أثره..

يا أخا بكر: أما علمت أن دار الحرب يحل ما فيها؟

وأن دار الهجرة يحرم ما فيها إلا بحق..»^(١).

هذه بعض مصاديق الموقف الإنساني الفريد الموافق لأمر الله والمطابق لشريعته الغراء الذي التزم به الإمام علي (ع) في معاملة المنهزمين في خصومه.. إنه موقف لا ترى فيه للعاطفة والإندفاع والتشقي أثرًا.. إنه موقف جسد فيه الإمام حكم الله تعالى.

وهل غير علي (ع) جدير بتجسيد حكم شريعة الله فيما شجر بين الناس؟

وواصل الإمام (ع) خطواته الإنسانية إزاء الناكثين.

وهكذا حسم الموقف لصالح الإمام (ع) في فتنة البصرة فأبدى الإمام (ع) خلاله وبعده أنبل المشاعر وأصدقها نحو المغرر بهم محاولاً بذلك راب الصدع وجمع الشمل وإعزاز الأمة.



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
 Bibliothéque Générale d'Alexandrie

حرب طفين

بعد ين تم لعللي (ع) النصر عاد بجيشه إلى الكوفة، وبعد أن عزز الجيش عزم على التوجه إلى الشام لتصفية المعارضة التي يقودها معاوية بن أبي سفيان هناك..

وسار الإمام (ع) على رأس جيشه، غير أن أنباء مسير الإمام (ع) نحو الشام قد بلغت الناكثين هناك، فقرروا ملاقة الزحف الإسلامي فتلاقى الجيشان عند نهر الفرات...

وبدأ الإمام (ع) ببذل مساعيه لإصلاح الموقف بالوسائل السلمية، فأرسل وفداً ثلاثياً إلى معاوية، يدعوه إلى تقوى الله والحفاظ على وحدة الصف والدخول في إجماع الأمة... إذهبوا إلى هذا الرجل - معاوية - وادعوه إلى الله تعالى، وإلى الطاعة والجماعة، لعل الله تعالى أن يهديه، ويلتئم شمل هذه الأمة»^(١).

والتقى الوفد بقائد المعارضة، وأبلغوه بنوايا الإمام (ع) ووضعوه أمام الله تعالى وحذروه مغبة ما يقدم عليه، غير أن معاوية أبدى

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٧٠.

إصراراً، وقد ختم رده على الوفد «انصرفوا عني فليس عندي إلا السيف»^(١).

على أن الموقف الأموي ذلك لم يصرف الإمام (ع) على التسليح بالصبر والإنابة ولم يثر فيه روح التعجيل بالمواجهة الصارمة حقناً للدماء، وحفاظاً على نفوس الأمة...

بيد أن الموقف الإنساني الذي التزمه الإمام (ع) لم يزد القوى المعارضة إلا إصراراً، فعملوا من جانبهم على الحيلولة دون حصول جيش الإمام (ع) على الماء، حيث سبق أن تحرك فيلق لهم واتخذ مواقعه عند ماء الفرات ليمنع جند الإمام من الماء...

وبالنظر لأهمية الماء في الإستراتيجية العسكرية ولعدم توفر مصدر آخر لجيش الإمام غير الفرات، فإن الإمام (ع) قد التزم الأناة أيضاً في معالجة الموقف.

فأرسل رسولاً إلى معاوية ليبلغه (أن الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك عنه).

فرد عليهم معاوية بقوله: «لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأ»!!! الأمر الذي اضطر الإمام (ع) إلى استعمال العنف في الحصول على الماء لجيشه، حيث لا بديل للعنف..

وهكذا حرك الإمام (ع) فرقة من جيشه لإنهاء الحصار المضروب عليهم، فانهمزم فيلق معاوية شر هزيمة..

(١) نفس المصدر السابق ص ٧١.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٣ لابن أبي الحديد / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط. ١٩٥٩ م دار إحياء الكتب العربية.

وبعد أن صار الماء في نطاق نفوذ جيش الإمام (ع) أذن للباغين بالتزود منه متى شاؤوا، مجسداً بذلك بنداً من أخلاق الإسلام العظيمة في هذا المضمار.

فأعظم بعلي من محارب نبيل، وأكرم به من صاحب قلب كبير. .

وحيث أن همّ الإمام (ع) أن يحقن دماء المسلمين ويصونهم من التمزق، ويدراً التصدع عن صفهم، فقد طلب من معاوية أن ينزله إلى ميدان القتال فيتقاتلا دون الناس لكي تكون إمامة الأمة لمن يغلب «يا معاوية علام يقتتل الناس؟ أبرز إليّ ودع الناس، فيكون الأمر لمن غلب»^(١).

إلا أن معاوية قد رفض خوفاً من بطش الإمام (ع) وبالغرم من أن الجيش الأموي قد بدأ القتال من جانبه، فإن الإمام (ع) قد التزم بضبط النفس كذلك وحاول أن يحصر القتال في حدود المباراة المحدودة^(٢).

ولما لم تلق محاولات الإمام (ع) الرأب الصدع - الذي خلفه معاوية في صف الأمة - استجابة، تفجر الموقف بحرب واسعة النطاق استمرت أسبوعين دون هوادة.

وقد لاحت تباشير النصر لصالح معسكر الإمام (ع) وأوشكت القوى الباغية على الإنهزام، فدبروا «خدعة المصاحف» فرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح والسيوف. . مما نجم عن تلك الخطة

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، بلفظ متقارب.

(٢) نفس المصدر السابق.

الماكرة تغير جوهرى في الموقف العام.

ولقد كان لرفع المصاحف من لدن معسكر معاوية صدى عميقاً في معسكر الإمام (ع) إذ سرعان ما سارت كثرة كاثرة من جيشه مطالبة بإيقاف القتال.. فكثر اللغط بين الصفوف وأثر الآلاف ترك الحرب..

ومع أن الإمام تصدى لكشف خلفيات رفع المصاحف واستعمل كل وسائله الإقناعية في البرهنة على كونها خدعة يراد بها عرقلة تحقيق النصر الذي بات وشيكاً لصالح جيش الإمام (ع). إلا أن المطالبين بإيقاف القتال لم يستجيبوا لنداءاته المتكررة في هذا المضمار، ولعل بعضهم استعمل لغة التهديد للإمام (ع)..^(١).

واضطروه أن يبعث الأشعث بن قيس إلى معاوية للتعرف على ما يريد من وراء رفعه للمصاحف، فعاد يحمل رغبة معاوية في التحكيم.. ثم تلى ذلك الفصل الثاني من المأساة، فاختارت الغوغاء أبا موسى الأشعري لتمثيل معسكر الإمام (ع) بينما اختار معاوية ابن العاص. على أن الإمام (ع) قد رفض فكرة تمثيل الأشعري لمعسكره باعتبار أن الأشعري كان معتزلاً للإمام (ع) ولم يكن يرى في الإمام أهلاً لتولي الخلافة بعد عثمان^(٢) - هو وآخرون ممن اعتزلوا الإمام (ع) - وكان يخذل الناس عن نصرة الإمام، مما حمل الإمام على عزله من ولاية الكوفة^(٣)..

وقد رجح الإمام (ع) أن يكون الممثل لمعسكره في التحكيم عبد الله بن عباس، غير أن الغوغاء أصرروا على اختيار أبي موسى

(١) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ١٠٣.

(٢) راجع الفصول المهمة ص ٧٨ وتذكرة الخواص ص ١٠٣.

(٣) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ٧٤.

الأشعري بالرغم من تأكيد الإمام على ضعفه ووهن رأيه إضافة إلى مرتكزاته الفكرية وموقفه من حكومة الإمام (ع) .

وها هو الإمام (ع) يخاطب المخدوعين بقوله «قد عصيتموني في أول الأمر - يشير إلى قبول التحكيم وإيقاف القتال - فلا تعصوني الآن، لا أرى أن تولوا أبا موسى الحكومة فإنه ضعيف عن عمرو ومكائده»^(١).

إلا أنهم أصرروا على اختيار الأشعري . .

ومن هنا فإن الباحث البصير لا يمكن أن يركن إلى الاعتقاد بأن تلك الأمور قد جرت بشكل عفوي أبداً . . فإن سير الأحداث لا يدل على ذلك . . إذ أن رفع المصاحف كان قد جرى بتوقيت وتنسيق بين معاوية وحركة موالية له في جيش الإمام (ع) لا بد أن يكون له اتصال معها . . .

فما أن ارتفعت المصاحف حتى استجاب أولئك لإيقاف القتال مستفيدين من سأم الناس من القتال، فوسعوا قاعدتهم في صفوف معسكر الإمام (ع) وفرضوا عليه التحكيم، وممثل معسكره في التحكيم فيما بعد . . .

وهكذا فإنني لا أعتقد بحال أن لا تكون حركة التمرد في جيش الإمام (ع) بذلك الشكل الذي ذكره المؤرخون لا تعتمد على تخطيط أموي مسبق أبداً . .

وقد جاءت نتائج التحكيم - كما توقع الإمام (ع) لصالح معاوية حيث بدأ الأمر يستتب له شيئاً فشيئاً .

(١) نفس المصدر ص ٧٩ .

حرب النهروان

بعد واقعة التحكيم عاد الإمام (ع) بجيشه إلى الكوفة . ففوجيء
بخروج طائفة من جيشه يبلغ تعدادها أربعة آلاف، معلنة تمردا على
الإمام (ع) فلم تدخل معه الكوفة . وإنما سلكت سبيلها إلى حر
وراء، فاتخذت مواقعها هناك . . .

ومن الجدير بالذكر أن الفئة التي خرجت على الإمام (ع) كان
قوام أغلبها من الفئات التي أرغمت على التحكيم في حرب صفين^(١).

فعند تمرد تلك الفئة وخروجها من جيش الإمام (ع) أعلنت
مبررات خروجها تحت شعار «لا حكم إلا لله، لا نرضى بأن تحكم
الرجال في دين الله، قد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن
يقتلوا أو يدخلوا معنا في حكمنا عليهم، وقد كانت منا خطيئة وزلة
حين رضينا بالحكمين، وقد تبنا إلى ربنا، ورجعنا عن ذلك،
فارجع - يقصدون الإمام (ع) - كما رجعنا، وإلا فنحن منك براء^(٢).

(١) يوليوس فلهوزن / الخوارج والشيعة ترجمة عبد الرحمن بدوي ط ٢، ١٩٧٦ كويت
ص ٣٢.

(٢) وقعة صفين / نصر بن مزاحم ط ٢، ١٣٨٢ هـ ص ٥١٧.

بيد أن الإمام (ع) أوضح لهم حينئذ أن الخلق الإسلامي يقتضي الوفاء بالعهد - الهدنة لمدة عام - الذي أبرم بين المعسكرين قائلاً: «ويحكم، بعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟»

أو ليس الله يقول «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إن الله يعلم ما تفعلون»^(١).

إلا أن المعارضة لم تصغ إلى توجيهات الإمام (ع) واستمروا في غيهم، وتعاضم خطرهم بعد انضمام أعداد جديدة لمعسكرهم، وراحوا يعلنون القول بشرك المتمين إلى معسكر الإمام (ع) - بالإضافة للإمام - ورأوا استباحة دمائهم ..

ولقد كان الإمام (ع) عازماً على عدم التعرض لهم ابتداء ليمنحهم فرصة التفكير جدياً بما أقدموا عليه، عسى أن يعودوا إلى الرأي السديد، ولكي يتفرغ كلياً لاستئناف القتال مع البغاة في الشام، بعد فشل التحكيم بعد اللقاء الثاني بين الحكامين، حيث تمت خديعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري التي أدت إلى عدم تحقيق التحكيم ..

غير أنهم بدأوا يشكلون خطراً حقيقياً على دولة الإمام (ع) من الداخل .. وبدأ خطرهم يتعاضم فقتلوا بعض الأبرياء، وهددوا الأمنين، فقتلوا الصحابي الجليل عبد الله بن خباب وبقروا بطن زوجته وهي حامل مقرب دون مبرر .. وقتلوا نسوة من طي ..

فلما بلغ أمرهم أمير المؤمنين (ع) أرسل إليهم الحارث بن مرة

(١) النحل / ٩١ راجع وقعة صفين: نصر بن مزاحم ص ٥١٧.

العبدى، ليتعرف على حقيقة الموقف، غير أنهم قتلوه كذلك^(١).

فلما علم الإمام (ع) بالأمر كرّر راجعاً من الأنبار - حيث كان قد اتخذها مركزاً لتجميع قواته المتجهة نحو الشام - وعندما اقتربت قواته منهم بذل مساعيه من أجل إصلاح الموقف دون إراقة للدماء، فبعث إليهم أن يرسلوا إليه قتلة المؤمنين عبد الله ابن خباب والحارث العبدى وغيرهما وهو يكف عنهم، ولكنهم أجابوه: أنهم كلهم قتلوه..

وبعث الإمام (ع) إليهم الصحابي الجليل قيس بن سعد فوعظهم، وحذرهم مغبة موقفهم الأحمق... وأهاب بهم للرجوع عما يرون من جواز سفك دماء المسلمين وتكفيرهم دون وجه حق^(٢).

وتابع الإمام (ع) موقفه الإنساني الرشيد، فأرسل إليهم أبا أيوب الأنصاري (رض) وبعد أن وعظهم، رفع راية ونادى: من جاء هذه الراية - ممن لم يقتل - فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن لا حاجة لنا به بعد أن نصيب قتلة إخواننا^(٣).

وقد نجحت المحاولة إلى حد كبير حيث تفرقوا شيئاً بعد شيء حتى انخفض عددهم إلى أربعة آلاف إذ كان عددهم اثني عشر ألفاً.

وقد بدأ الباقون منهم الهجوم من جانبهم على جيش الإمام (ع) فأمر أصحابه بالكف عنهم حتى يبدؤوا بالقتال. فلما بدأ الخوارج القتال، طوقتهم قوات الإمام (ع) وتحقق الظفر لراية الحق.

وهكذا قضى الإمام (ع) في حرب النهروان على حركة الذين سبق لرسول الله (ص) أن سماهم بالمارقين حين أشار إليهم في حديث

(١) الفصول المهمة / للمالكي ص ٩١.

(٢) المصدر المتقدم ص ٩٢.

(٣) أعيان الشيعة ج ٣، ص ٢٠ (عن الطبري) والفصول المهمة ص ٩٣.

رواه أبو سعيد الخدري قال «سمعت رسول الله (ص) يقول يخرج في هذه الأمة قوم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية»^(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحة نقلًا عن الفصول المهمة ص ٩٤ أو البلاذري في أنساب الأشراف ج ٢، ص ٣٧٦ عن علي (ع) بلفظ آخر، وخصائص النسائي ص ٧١.

فجـ ذمة الله

أنهى الإمام (ع) مقاومة المارقين، فشر عن ساعديه لاستئناف قتال القاسطين في الشام بعد أن فشل التحكيم عند اللقاء الثاني بين الحكمين.

وقد أمر الإمام (ع) بتعبئة جيشه، وأعلن حالة الحرب لتصفية قوى المعارضة التي يقودها معاوية، وجاء إعلان الحرب من خلال خطبة لأمر المؤمنين (ع) خطبها في الكوفة - عاصمة الدولة الإسلامية - فضمنها دعوته للجهاد.

«... الجهاد، الجهاد عباد الله! ألا وإنني معسكر في يومي هذا.. فمن أراد الرواح إلى الله، فليخرج!»^(١).

ثم بادر الإمام (ع) إلى عقد الوية الحرب، فعقد للحسين راية ولأبي أيوب الأنصاري أخرى، ولقيس بن سعد ثالثه.

وبينما كان أمير المؤمنين يواصل تعبئة قواته من أجل أن ينهي حركة المعارضة التي يقودها معاوية في بلاد الشام كان يجري في

(١) نهج البلاغة رقم الخطبة ١٨٢.

الخفاء تخطيط لثيم من أجل اغتيال الإمام (ع).

فقد كان جماعة من الخصوم قد عقدوا اجتماعاً في مكة المكرمة، وتداولوا في أمر حركتهم، التي انتهت إلى أوخم العواقب.

فخرجوا بقرارات كان أخطرها قرار اغتيال أمير المؤمنين (ع) وقد أوكل أمر تنفيذه للمجرم الأثيم (عبد الرحمن بن ملجم المرادي)، وفي ساعة من أخرج الساعات التي يمر بها الإسلام والمسيرة الإسلامية، وبينما كانت الأمة تتطلع إلى النصر على عناصر المعارضة والفرقة التي يقودها معاوية بن أبي سفيان، امتدت يد الأثيم المرادي إلى علي (ع) فضرب الإمام (ع) بسيف وهو في سجوده عند صلاة الفجر، وفي مسجد الكوفة الشريف، وذلك في صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ٤٠ هجرية.

لقد اغتيل الإمام (ع) وهو في أفضل ساعة حيث يقوم بين يدي الله في صلاة خاشعة.

وفي أشرف الأيام إذ كان يؤدي صوم شهر رمضان.

ثم هو (ع) في أعظم تكليف إسلامي حيث كان في طريقه لخوض غمر حرب جهادية، كما كان في بقعة من أشرف بقاع الله وأطهرها «مسجد الكوفة».

فطوبى لعلي وحسن مآب.

لكن جريمة قتل علي (ع) تبقى أشرس جريمة وأكثرها فظاعة ووحشية، لأنها جريمة لم تستهدف رجلاً كباقي الرجال، إنما استهدفت القيادة الإسلامية الراشدة.

واستهدفت كذلك اغتيال رسالة، وتاريخ، وحضارة، وأمة كلها تتمثل في شخص علي أمير المؤمنين (ع).

وبهذا خسرت الأمة الإسلامية مسيرة وحضارة، وأروع فرصة وأطهرها في حياتها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولقد بقي الإمام (ع) يعاني من علته ثلاثة أيام، عهد خلالها بالإمامة إلى ولده الحسن السبط (ع) ليمارس بعده مسؤولياته في قيادة الأمة الفكرية والاجتماعية.

وكان (ع) طوال الأيام الثلاثة - كما كان طول حياته - لهجا بذكر الله، والثناء عليه والرضا بقضائه، والتسليم لأمره، كما كان يصدر الوصية تلو الوصية، والتوجيه الحكيم أثر التوجيه، مرشداً للخير، دالاً على المعروف، محدداً سبل الهدى، مبيناً طريق النجاة، داعياً لإقامة حدود الله تعالى وحفظها، محذراً من الهوى والنكوص عن حمل الرسالة الإلهية.

وهذه واحدة من وصاياه بهذا الشأن - مخاطباً بها الحسن والحسين سبطي رسول الله (ص) وأهل بيته وأجيال الأمة:

«أوصيكمما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وأن بغتكمما، ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما، وقولاً بالحق، واعملاً للأجر وكوناً للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

أوصيكمما، وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي، بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام».

الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم. الله الله في جيرانكم، فأنهم وصية نبيكم. ما زال يوصي بهم، حتى ظننا أنه سيورثهم.

الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم .
 الله الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم .
 الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم
 تناظروا .

الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألستكم في سبيل الله .
 وعلكمم بالتواصل والتبازل، وإياكم والتدابير والتقاطع، لا تتركوا
 الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم، ثم تدعون
 فلا يستجاب لكم .
 ثم قال :

يا بني عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين
 خوضاً، تقولون: «قتل أمير المؤمنين» ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي .
 أنظروا إذا أنا مت في ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة، ولا
 تمثلوا بالرجل، فإن سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله
 وسلم - يقول: «إيكام والمثلة ولو بالكلب العقور»^(١) .
 وهكذا كانت النهاية المؤلمة لهذا الرجل العظيم ..

فلقد كانت خسارة الرسالة والامه بفقده من أفدح الخسائر التي
 أصيبت بها الأمة بعد رسول الله (ص) .
 فبموت علي (ع) فقدت الأمة :
 بطولة غدت أنشودة للزمان . .
 وشجاعة ما حلم التاريخ بمثلها . .

(١) نهج البلاغة / ترتيب د. صبحي الصالح، ص ٤٢١ رقم ٤٧ .

وحكمة لا يعلم بعدها إلا الله ..
وطهرآ ما أكتسى به غير الأنبياء ..
وزهدآ في الدنيا ما بلغه إلا المقربون ..
وبلاغة كأنما هي رجع صدى لكتاب الله ..
وفقهاً وعلماً وتضلعاً بأحكام الرسالة رشحته لأن يكون باب
مدينة علم الرسول (ص) ومرجع للأمة الإسلامية في جميع شؤونها.
فسلام على أمير المؤمنين يوم ولد ويوم قضى شهيداً في محرابه
ويوم يبعث حياً ..
والحمد لله رب العالمين

القسم الثالث

«.. ما وجد لي كذبة
فاجد قول ولا خطلة
فاجد فعل»

توطئة

كنا قد تناولنا في القسم الأول من دراستنا هذه لحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) دور رسول الله (ص) في إعداد شخصية الإمام علي (ع) والإشراف المباشر على تشكيل عناصرها، منذ طفولته.. حتى صارت شخصية الإمام (ع) نسخة ثانية طبق الأصل لرسول الله (ص) فكراً وعقيدة وسلوكاً فيما عدا الرسالة ومستلزماتها..

ولقد وصف الإمام (ع) طبيعة خضوعه لذلك اللون من الإعداد الرسالي وصفاً دقيقاً بقوله «.. وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرقه، وكان يمسح الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل.

ولقد قرن الله به - صلى الله عليه وآله - من لدن إن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم: ليله ونهاره.

ولقد كنت أتبعه: اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من

أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحزاء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي، وأشم ريح النبوة.

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه - صلى الله عليه وآله -.

فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟

فقال: «هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير وإنك لعلّي خير...»^(١).

فهذا النص الكريم إضافة إلى ما حفظه لنا التاريخ من سيرة الإمام (ع) يجسد لنا بعمق وقوة المدى الذي كان الإمام (ع) قد حظي به في مضممار الأعداد الرسالي المخطط الذي خصه رسول الله (ص) به. تهيئه له للنهوض بأعباء المرجعية الفكرية والسياسية في الأمة.

وقد بدأ ذلك الإعداد الرسالي من لدن رسول الله (ص) لعلّي (ع) منذ نعومة أظفاره فهو ربيبه الذي فتح عينيه في حجره، وهياً له من فرص التفاعل معه وسلوك نهجه في الحياة ما لم يتوفر لأحد سواه.

وبالإضافة إلى ما كان قد خص به الإمام (ع) من لدن الرسول (ص) أيام الطفولة والصبا من رعاية وتبن وتربية، الأمر الذي ألمحنا إليه في الحلقة الأولى من هذه الدراسة فإن الأعداد الرسالي للإمام (ع) منذ الدعوة المباركة، وحتى آخر ساعة من حياة

(١) نهج البلاغة تبويب صبحي الصالح خطة رقم ١٩٢ «القاصعة».

رسول الله (ص) قد اتسع مداراً وازداد شمولاً وأصبح أكثر تركيزاً.

والشواهد من حياة رسول الله (ص) متظاهرة في هذا المضمار:
فضلاً عن حرص الإمام (ع) على الاقتداء به بأقصى درجات الاقتداء
وأصدقها وأكثرها أمانة، فإن رسول الله (ص) كان يخصه بفكر الرسالة
وحقائقها ومتطلباتها، ويمده بالمزيد من الثقافة الإلهية.

وكان (ص) يختلي بالإمام (ع) الساعات الكثيرة آناء الليل
والنهار ليعمق وعيه لمفاهيم الرسالة ومشاكل المهمة التغييرية التي
بدأها رسول الله في الواقع الإنساني، وأساليب العمل من أجل إكمال
ما بدأه الرسول (ص).

روى النسائي عن عبد الله بن عمرو بن هند الجملي عن
علي (ع) قال: «كنت إذا سألت رسول الله (ص) أعطيت، وإذا سكت
ابتدأني»^(١).

وعن ابن عباس عن علي (ع) قال «كان لي من النبي (ص)
مدخلان: مدخل بالليل، ومدخل بالنهار».

وعن أبي سعيد الخدري قال: «كانت لعلي من رسول الله (ص)
دخلة لم تكن لأحد من الناس».

وعن عبد الله بن يحيى عن علي (ع) قال «كنت أدخل على نبي
الله (ص) كل ليلة، فإن كان يصلي سبح، فدخلت، وإن لم يكن
يصلي إذن لي فدخلت»^(٢).

(١) خصائص الإمام علي بن أبي طالب - للنسائي ط ١ بيروت ١٩٧٥، وأنساب
الأشراف للبلاذري ج ٢ ص ٩٨.

(٢) نفس المصدر ص ٤٨.

وعن أم سلمة قالت «والذي تحلف به أم سلمة أن أقرب الناس عهداً برسول الله (ص) علي (ع) . . لما كان غدوة قبض رسول الله (ص) فأرسل إليه رسول الله (ص) - قالت - «وأظنه بعثه في حاجة» فجعل يقول: جاء علي؟ - ثلاث مرات - فجاء قبل طلوع الفجر فلما أن جاء عرفنا أن له إليه حاجة، فخرجنا من البيت وكنا عند رسول الله يومئذ في بيت عائشة، وكنت في آخر من خرج من البيت، ثم جلست من وراء الباب، فكنت أدناهم إلى الباب، فأكب عليه علي (ع)، فكان آخر الناس به عهداً، فجعل يساره ويناجيه»^(١).

ولقد كانت حصيلة ذلك الإعداد الرسالي الخاص من رسول الله (ص) لعلي أن رشحت الرسالة الإلهية للإمام علياً (ع) لاحتلال موقع المرجعية الفكرية والسياسية للأمة الإسلامية.

وقد عبر الإسلام الحنيف عن ذلك الترشيح بشتى الوسائل التعبيرية المباشرة، مجسداً مؤهلات علي (ع) لأمامة الأمة المسلمة تارة، ومعلنًا تارة أخرى إسناد الأمامة له رسمياً:

فضائل علي بن حديث رسول (ص):

وهذه بعض مؤهلات الإمام (ع) كما تطرحها النصوص الصحيحة:

١ - قال رسول الله (ص) مثل علي فيكم كمثل الكعبة. . .»^(٢)

(١) نفس المصدر ص ٦٥ وأخرجه أيضاً أحمد بن حنبل في مسنده والكنجي والمحب الطبري وغيرهم نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ٧٧-٧٨ مط . الأعلمي كربلاء.

(٢) جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٩٦ وابن عساكر من حديث أبي بكر وعثمان وعائشة وسواهم، وأخرج الحديث الكنجي الشافعي في الكفاية والخوارزمي في المناقب، نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ٦-٧ مط الأعلمي - كربلاء.

فحيث توحيد الكعبة وجهة الأمة عند ساعات الوقوف بين يدي الله تعالى في الصلاة أو أداء شعائر الحج والعمرة، كذلك يفعل التزام علي (ع) والأخذ عنه في دنيا المسلمين.

٢ - والإمام (ع) هو الصراط المستقيم الذي تستلهم الأمة منه العلم الإلهي ومعارف التشريع بعد رسول الله (ص) دون سواه من الناس:

قال رسول الله (ص): «علي باب علمي ومبين لأمتي ما أurst به من بعدي، حبه إيمان، وبغضه نفاق...»^(١).

وقال (ص) أنا مدينة العلم وعلي بابها...»^(٢).

٣ - وأن علياً كرسول الله (ص) في إقامة العدل بين الناس فكفه كفه (ص) قال رسول الله (ص): «يا أبا بكر كفي وكف علي في العدل سواء»^(٣).

٤ - ويصف الرسول علياً (ع) بأنه كنفسه، فقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن حنطب قال: قال رسول الله (ص) لو فدت ثقيف - حجين جاؤوه - «لسلمن أو لأبعثن إليكم رجلاً كنفسه ليضربن أعناقكم وليسبين ذرايكم، وليأخذن أموالكم - فالتفت إلى علي وأخذ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ورواه الديلمي في فردوس الأخبار والحموي في الفرائد وغيرهم نقلاً عن المصدر السابق ص ٧.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل والترمذي في جامعة الصحيح نقلاً عن فتح الملك الملي بصحة حديث باب مدينة العلم علي الحافظ أحمد بن محمد الغماري ط ٢ ١٩٦٩.

(٣) أخرجه جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء وابن عساكر في تاريخه الكبير والمناقب للخطيب الحنفي نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ١٢.

بيده - فقال: هو هذا، هو هذا»^(١).

٥ - وأن الإمام عليه السلام أدرى المسلمين قاطبة بشؤون القضاء بعد رسول الله (ص) فعن أنس بن مالك قال:

قال رسول الله (ص): «أقضى أمتي علي»^(٢) وهو إشارة من الرسول (ص) إلى أن الإمام علي (ع) أقدر من سواه على إدارة شؤون الأمة وحسم ما يشجر في حياتها العملية.

٦ - وقال المصطفى (ص) «علي مع الحق والحق مع علي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة»^(٣).

٧ - وحيث أن علياً (ع) صنو الحق الذي هدى الله عباده إليه، فلا يفترق أحدهما عن الآخر، فقد دعا رسول الله (ص) أمته لسلوك منهجه والإندماج بخطة لينقذها من الزيغ، ولكي لا تتبع السبل فتضل عن سبيل الله تعالى قال (ص): «ستكون من بعدي فتنة، فإذا كان ذلك، فألزموا علي بن أبي طالب، أنه أول من يراني، وأول من يصافحني يوم القيامة، وهو مني في السماء العليا، وهو الفاروق بين الحق والباطل»^(٤).

(١) وأخرجه ابن حنبل في المناقب أيضاً وأخرجه كذلك أبو نعيم في الحلية والترمذي وغيرهما، نقلاً عن علي والوصية ص ٣٤٦ - ٣٤٧ بالفاظ متشابهة.

(٢) الرياض النضرة ج ٢ ص ١٩٨ والكنجي الشافعي في الكفاية والفصول المهمة - لابن الصباغ المالكي وأنساب الأشراف للبلاذري نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ٣٢ ط الأعلمي.

(٣) الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ج ٤ ص ٣٢١ وابن قتيبة في الإمامة والسياسة وكنز العمال والزمخشري في ربيع الأبرار والحموي في فرائد السمطين وغيرهم، نقلاً عن علي والوصية ص ١١٣.

(٤) الكنجي الشافعي في كفاية الطالب والحافظ في أمالية وغيرها، نقلاً عن علي والوصية ١٦٧.

٨ - وحول إيمان علي (ع) ومداه يقول رسول الله (ص): «لو أن السماوات والأرض موضوعتان في كفة وإيمان علي في كفة لرجح إيمان علي (ع)»^(١).

هذه بعض مؤهلات علي (ع) كما بينها رسول الله (ص).

نصوص الامامة:

أما النصوص التي تسند إليه أمر إمامة الأمة فكرياً وسياسياً بشكل صريح فنذكر منها.

١- آية الولاية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

(المائدة / ٥٥ - ٥٦).

فقد ذكر المفسرون أن آية الولاية هذه قد نزلت في علي ابن أبي طالب (ع)، حيث تؤكد بلا أدنى شك أنه يجب على الأمة الإسلامية الالتزام به إماماً ومرجعاً فكرياً وسياسياً بعد رسول الله (ص).

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في علي (ع) كما روى ذلك جمع من الثقة من المحدثين والمفسرين - لحد الإستفاضة - وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة أن سائلاً دخل مسجد رسول الله (ص) يسأل

(١) أخرجه الديلمي عن ابن عمر، يراجع كنز العمال ج ٦ ص ١٥٦ والرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٦ أخرجه عن عمر بن الخطاب نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ص ١٥ ط الأعلمي - كربلاء.

المسلمين المعونة فأشار الإمام (ع) إلى أصبعه وهو راع فانتزع السائل خاتم الإمام من أصبعه وتصدق الإمام به وهو راع فنزلت فيه هذه الآية^(١).

٢ - خطبة الغدير التي ألقاها رسول الله (ص) في حجة الوداع بعد أدائه مراسيم الحج الأكبر.

فعن البراء بن عازب قال: أقبلنا مع رسول الله (ص) سنته التي حج فيها، فنزل في بعض الطريق فأمر: الصلاة جامعة فأخذ بيد علي،

فقال: «أست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قال: بلى.

قال (ص): «أست أولى بكل مؤمن من نفسه؟»

قالوا: بلى.

قال (ص): «فهذا ولي من أنا مولا، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه»^(٢).

وفي لفظ أحمد بن حنبل أن رسول الله (ص) قال: «من كنت مولا فعلي مولا، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٣).

(١) راجع تفسير الآية في كل من: تفسير البضاوي ومجمع البيان للطبرسي، وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، والطبري في تفسيره، والواحدي في أسباب النزول، وأبو البكرات النسفي في تفسيره، والنيسابوري في تفسيره، والشبلنجي في نور الأبصار وابن حجر في صواعقه المحرقة وغيرهم. نقلاً عن فضائل الخمسة في الصحاح الستة ج ١ وأعيان الشيعة ج ٣ ق ١ ص ١٣٠ وما بعدها

(٢) لفظ صحيح ابن ماجه ص ١٢.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٢٨١ وقد نص على أن الحديث رواه ثلاثون =

٣- وعن أم سلمة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله (ص): «أن الله اختار لكل نبي وصياً، وعلى وصي في عترتي وأهل بيتي وأمتي بعدي»^(١).

هذه بعض النصوص الإسلامية الصحيحة التي أسندت أمر المرجعية الفكرية والسياسية لعلي بن أبي طالب (ع) ولمن يريد المزيد من تتبع نصوص الإمامة مراجعة المصادر المختصة بالموضوع^(٢).

= صحابياً. وقد أخرج الحديث غيره كالنسائي في الخصائص والطبراني عن زيد بن أرقم والفخر الرازي في تفسير آية «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» وكنز العمال ج ١ ص ٤٨ ومستدرك الصحيحين نقلاً عن كتاب الغدير ج ١ للشيخ عبد الحسين الأميني.

(١) الموفق بن أحمد الحنفي في مناقبه والحموي الشافعي في فرائد السمطين وفي مسند أحمد بن حنبل حديث الوصية يشبهه وللثعلبي في الكشف والبيان وابن المغازلي مثله نقلاً عن علي والوصية ص ٢٣٥.

(٢) ككتاب «الغدير» للشيخ عبد الحسين الأميني «ودلائل الصدق» للشيخ محمد حسن المظفر و«وأحق» الحق» للقاضي التستري و«عقبات الأنوار» للسيد مير حامد حسين و«المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين.. وغيرها.

شخصية علي (ع)
من خلال عناصرها الأساسية

علاقة الامام علي بالله تعالى:
شواهد من عبادة امير المؤمنين (ع):
المنهج العبادي في خطوطه الاساسية:

إذا كانت حصيلة الإعداد الإلهي المباشر لرسول الله (ص) إن صار خلقه (ص) القرآن بكل ما فيه من فضائل وقيم روحية رفيعة مجسداً حياً في دنيا الواقع^(١)، فإن حصيلة الإعداد الرسالي من لدن رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب (ع) أن صار علي (ع) صورة للرسول (ص) فكراً وهدياً ومواقف..

ولقد قرأنا بين ثنايا النصوص الكريمة التي مرت بنا خلال هذه الدراسة^(٢): تلك النصوص التي تكشف بقوة عما لعلي (ع) من مكانة في دنيا الإسلام.

فهو: المطهر من الرجس، وهارون الأمة، والذي كفه ككف النبي المصطفى، في العدل، وهو رفيق الحق لا ينفك أحدهما من الآخر وهو باب العلم الإلهي، وفاروق الأمة^(٣) و... و... الخ.

(١) يراجع القسم الثالث من سيرة المصطفى (ص) للمؤلف.

(٢) راجع القسم الأول من هذه الدراسة التي بين يديك.

(٣) فاروق الأمة رواه عن رسول الله (ص) الطبراني والبيهقي وكنز العمال وسواهم نقلاً عم المراجعات ص ١٧٠.

وكل هذه الأوسمة التي زين بها الإسلام صدر علي (ع) كانت ذات مداليل عملية في دنيا الواقع في حياة علي (ع).

فهذه الصفات السامية جاءت ترجمة لواقع صار إليه الإمام (ع) كثمرة للأعداد الرسولي له منذ نعومة أظفاره حتى آخر يوم من أيام المصطفى (ص).

ولعنا لا ندرك أهمية تلك الأوسمة التي زين بها صدر الإمام (ع) ما لم نسلط بعضاً من الضوء على المقومات العامة لشخصيته سلام الله عليه في هذه الصفحات:

علاقة الإمام علي بالله تعالى

سبق أن أشرنا في حديثنا عن شخصية رسول الله (ص) إلى أن علاقة المسلم بالله تبارك وتعالى، ليست محدودة في إحدى زوايا حياته أبداً، وإنما هي كما حدد الله سبحانه أبعادها لعباده من خلال شريعته التي ارتضى لهم: تجرد كامل للعزیز المتعال عز وجل بكل خلجات النفس، وبكل حركة في الحياة: في الصلاة والصيام والحج والإعتكاف، بشعائر التعبد وبالعلاقات الأسرية والاجتماعية عامة بالحكم والقضاء بالمحيا والممات وما بعد الموت^(١).

وقد جسد القرآن الكريم حجم العلاقة بين العبد وربّه الأعلى بقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(الأنعام / ١٦٢)

على أن شعائر الإسلام الكبرى : كالصلاة والصوم والحج وسواها وإن كانت جزءاً من هيكل العبودية لله تعالى التي تشمل الحياة

(١) القسم الثالث من سيرة المصطفى (ص) للمؤلف.

الإنسانية كلها. إلا أن هذه الشعائر تختص بسمات خاصة «توقيفية» ككيفية الأداء والوقت والعدد، فهي في هذه المجالات محددة من قبل الله تبارك وتعالى فلا مجال فيها لتبديل أو تحوير أو نقص أو زيادة.

ثم إنها تمتاز في كونها وقفات خالصة لله سبحانه ليس فيها غايات أخرى غير رضوان الله والاستجابة لأمره، ومن أجل ذلك تفقد هذه الفرائض طابعها العبادي إذا دخل إطارها رياء أو نحوه.

وهي ميزة لا تتحقق في أمور الحياة الإنسانية الأخرى وإن كانت سابحة في إطار من العبودية لله تعالى.

فالأزواج والنشاط الاقتصادي مثلاً ونحوهما من العقود وإن كانت شريعة الله تعالى تضعها في مسار العبودية لله، والمرء من خلالها يؤدي عبادة إذا هو التزم بأحكام الشريعة الإسلامية في تحديد وجهتها وأبعادها ومستلزماتها إلا أنها تبقى حاملة لأغراض أخرى فالزواج مثلاً إن كان يحقق غاية إسلامية من ناحية تحصين الفرد المسلم عن الوقوع في المحرم، حتى أن الإسلام يعتبر عملية الزواج من لدن المسلم أحراراً لنصف الدين - كما في الحديث الشريف - كما أن الإلتزام بأحكام الشريعة الخاصة في حقول التعامل بين الزوجين ونحوها يعتبر أمراً مفروضاً على المؤمنين..

أقول إلى جانب هذه الأمور التي ترافق عملية الزواج، فإن الميل يبقى خلفية أساسية من خلفيات حمل الفرد على تعاطيه.

وهكذا تظهر خلفيات أخرى غير الخلفية العبادية في مثل هذه الأمور..

ومن هنا نرى أن أمر الزواج والنشاطات الاقتصادية في مثالنا أمور توجد في كل مجتمع في الماضي والحاضر، قبل عصر التنزيل وبعده

بالنظر لارتكازها على حاجات طبيعية لدى الكائن الإنساني، ومهمة شريعة الله تعالى تركز على إضفاء الصبغة الشرعية عليها بعد تهذيبها وتحديد مسارها ووضع مخطط إسلامي لصوغها وفقاً لمتطلبات الفطرة البشرية.

وبناء على هذا التحديد لطبيعة علاقة المسلم بالله تبارك وتعالى فسنستعرض علاقة الإمام علي بن أبي طالب (ع) بالله تعالى من خلال الفرائض والسنن الإسلامية.

شواهد من عبادة أمير المؤمنين (ع)

كحصىلة للإعداد الرسالي الذي حظي به الإمام (ع) من لدن
أستاذه الرسول (ص) - الأمر الذي تناولناه في مدخل هذه الرسالة - فقد
طبعت شخصية الإمام (ع) بشخصية المصطفى (ص) في جميع
مقوماتها: عبادة وفكراً ومواقف.

يسلك سبيله، يقتفي سنته ويقفو أثره، ومن أجدر بتجسيد سنة
الرسول (ص) كاملة في دنيا الواقع سوى علي (ع)؟ الذي صنع
رسول الله (ص) شخصيته وشكل جميع عناصرها وطبعها بالطابع
الإلهي منذ نعومة أظفاره.

وإذ نعقد هذا الفصل للحديث عن عبادة الإمام (ع) ووسائل
تعلقه بالله سبحانه، فسنعرض شواهد منها، لنذكر السمو الشاهق الذي
بلغه الإمام (ع) في مضممار الإنشداد إلى الله واستلهم سنة
الرسول (ص) المطهرة في هذا المضممار:

صلاة وضراعة:

فكرة تعاذه لأمر الصلاة والتضرع إلى الله سبحانه تعالى يشير
عروة بن الزبير في حديث له عن أبي الدرداء:

قال: «شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات^(١) النجار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات^(٢) النخل، فافتقدته، وبعد عن مكانه، فقلت الحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغم شجي، وهو يقول: «إلهي كم من موقعة حلت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك.

إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب (ع) بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء، والبث والشكوى، فكان مما ناجى به الله تعالى أن قال: «إلهي أفكر في عفوك، فتهون علي خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك، فتعظم علي بليتي».

ثم قال «آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملاء إذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال «آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آن من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى».

قال أبو الدرداء: ثم أمعن في البكاء، فلم أسمع له حسا، ولا حركة.

فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقفه لصلاة الفجر،

(١) الشوخط: شجر يتخذ منه القسي.

(٢) المغيلات: النخل الوارف الظلال.

فأتيته، فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحركته، فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو.

فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب، فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم.

فقلت فاطمة (ع): يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته؟ فأخبرتها الخبر.

فقلت: «هي والله - يا أبا الدرداء - الغشية التي تأخذه من خشية الله».

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق، ونظر إلي وأنا أبكي فقال: مما بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

فقال: يا أبا الدرداء، فكيف لورأيتني، ودعي بي إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتنني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحياء ورفضني أهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية».

فقال أبو الدرداء: «فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله» (ص)^(١).

هذا شاهد من شواهد تعلق الإمام (ع) بالله تعالى وشدة انشداده إليه ورهبته منه.

(١) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١١-١٢ نقلاً عن أمالي الصدوق والأنوار العلوية للشيخ جعفر النقدي ط ٢ ص ١١٥ ومناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٣٨٩.

ويبدو أن هذا ديدن علي (ع) كما يتجلى من قول الزهراء (ع) لأبي الدرداء: «هي والله الغشية التي تأخذه من خشية الله».

وهذه مزينة عند التوجه إلى الله تعالى في صلاته وضراعتة، الأمر الذي ألفه أهل البيت (ع) في علي (ع).

ومن أجل ذلك لم يفزعوا حين أنبأهم أبو الدرداء بموته - كما ظن هو - بل استفسروا عما رأى، فأعلمته الصديقة (ع) أن ما رآه هو المألوف من علي (ع) كل. آن حين تأخذه الغشية لله تبارك وتعالى أثناء قيام الليل.

ولكثرة قيامه للعبادة ليلاً يحدثنا عبد الأعلى عن نوف البكالي.. . قال: «بت ليلة عند أمير المؤمنين (ع) فكان يصلي الليل كله، ويخرج ساعة بعد ساعة، فينظر إلى السماء، ويتلو القرآن، فمر بي بعد هدوء من الليل فقال: يا نوف أراقد أنت أم راقق؟ قلت: بل راقق أرمقك ببصري يا أمير المؤمنين.

قال: يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقر آن دثاراً، والدعاء شعاراً، وقرضوا من الدنيا تقريضاً على منهاج عيسى بن مريم..»^(١).

وهكذا كان علي (ع) في شدة تعلقه بالله، وعظيم تمسكه بمنهج الأنبياء (ع). أنه ترجمة صادقة لعبادة محمد (ص) وزهد المسيح (ع).

(١) نفس المصدر ص ١٦ عن الخصال للصدوق ونهج البلاغة باب الحكم رقم ١٠٤ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

أرأيت كيف يندك وجوده على عتبة الخضوع لله والإستكانة له
وطلب رضوانه؟

وحول التزامه بقيام صلاة الليل طول عمره الشريف يروي لنا أبو
يعلى - في المسند - عنه (ع) قال: «ما تركت صلاة الليل منذ سمعت
قول النبي صلى الله عليه وآله: صلاة الليل نور».

فقال ابن الكواء: ولا ليلة الهرير؟

قال (ع): ولا ليلة الهرير^(١).

توجه ورهبة:

ولعظيم إقباله على الله تعالى يشير القشيري في تفسيره:

أنه كان (ع) إذا حضر وقت الصلاة تلون وتزلزل. ف قيل له: ما
لك؟

فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات
والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان على ضعفه، فلا
أدري أحسن إذا حملت أم لا^(٢).

ولع بالصلاة:

ولكثرة صلاته ما ورد عن الإمام الباقر (ع) أنه قال:

كان علي بن الحسين (ع) يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة،
كما كان يفعل أمير المؤمنين (ع)^(٣).

(١) البحار ج ٤١ ص ١٧. ليلة الهرير = من ليالي صفيين الحاسمة التي اشتبك
الفريقان فيها طوال الليل دون هوادة.

(٢) نفس المصدر ص ١٧.

(٣) نفس المصدر ص ١٥.

وعن سليمان بن المغيرة عن أمه قالت: سألت أم سعيد سرية علي (ع) عن صلاة علي (ع) في شهر رمضان.

فقلت: رمضان وشوال سواء، يحيى الليل كله^(١).

وعن الإمام الصادق (ع) قال: «إن علياً في آخر عمره يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة»^(٢).

عبادة الشاكرين:

ولقد عظم المعبود عز وجل في نفس الإمام (ع) فصارت عبادته تعبيراً عن الحب له والشوق إليه، واستشعار أهليته للعبادة دون سواه، ومن أجل ذلك كان علي (ع) لا يعبد الله خوفاً من عذابه، ولا طمعاً في جنته ولا فيما أعدّه من نعيم للمتقين، وإنما سما الإمام (ع) في علاقته بالله تعالى إلى أعلى الدرجات أسوة بأستاذه الرسول (ص).

وقد كشف الإمام (ع) عن جوهر علاقته بالله تعالى وطبيعتها بقوله:

«إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^(٣).

فأعظم به من يقين، وأكرم به من إيمان!!

ولقد حدد الإمام (ع) ألوان العبادة في كلمة خالدة:

«أن قوماً عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وأن قوماً عبدوا

(١) نفس المصدر ص ١٧.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣ أشار إلى أنه عليه السلام مع تقدم سنة بقي ملتزماً بمنهجه في العبادة والإكثار في الصلاة.

(٣) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٤ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص ١٤٤.

الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وأن قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار»^(١).

وكانت عبادته (ع) من النوع الأخير، حيث تصدر كحصيلة للشعور بأهلية المعبود للعبادة واستحقاقه لها.

أما إيقاف العبادة على حصول الثواب فحسب، فهي عبادة من وصفهم الإمام (ع) بالتجار، الذين يبتغون الثمن وينتظرون التعويض.. . وشتان بين هدف الشاكرين، وهدف التجار في ميزان الله تعالى وحسابه.

صلاة الرسول (ص):

ولقد كانت صلاة علي (ع) - أسوة بسائر نشاطاته - كصلاة رسول الله (ص) في كيفية الأداء والخشوع والإنشداد والتعلق بالله تعالى فعن مطرف بن عبد الله قال: «صليت أنا وعمران بن حصين خلف علي بن أبي طالب.. . فلما انصرفنا أخذ عمران بيد فقال: لقد صلى صلاة محمد، ولقد ذكرني صلاة محمد (ص)^(٢)!.

تعهدوا أمر الصلاة:

والى جانب تعاهد الإمام (ع) لأمر الصلاة فقد كان كثيراً ما يوصي أتباعه بتعاهد أمرها، وأدائها في أوقاتها وتعريفهم بأهميتها وأثرها في شخصية المسلم «تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقربوا بها فإنها - كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً -» ألا

(١) المصدر المتقدم.

(٢) أنساب الأشراف ج ٢ ص ١٨٠ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ نقلاً عن البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم.

نسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا «ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين».

وإنها لتحت الذنوب حت^(١) الورق، وتطلقها إطلاق الربق^(٢) وشبهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحنة^(٣)، تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات؛ فما عسى أن يبقى عليه من دون^(٤)؟

وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عين من ولد ولا مال.

يقول الله سبحانه:

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...﴾.

(النور / ٣٧)

«فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه»^(٥).

(١) حت الورق عن الشجر: قشره.

(٢) الربق: حبل فيه عدة عرى كل واحدة ريقة.

(٣) الحنة: عين ماء حار يستشفى فيها من المرض. نصبا: نصب في الأمر: جد واجتهد فيه.

(٤) الدرّ: الوسخ.

(٥) نهج البلاغة تبويب صبحي الصالح ص ١٩٩.

المنهج العبادي في خطوطه الأساسية

والى منهجه العبادي الملتزم أشار الإمام الباقر (ع) بقوله :
« .. وما ورد عليه أمران قط كلاهما لله رضى إلا أخذ بأشدهما
على بدنه »^(١).

وقد ورد عن الإمام علي (ع) ذاته « ... وإنما هي نفسي
أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر »^(٢).

وفي حديث ضرار بن ضمرة لمعاوية بن أبي سفيان حول
شخصية الإمام (ع) تجسيد لهذه الحقيقة، فمما جاء في حديثه « ..
كان والله صواماً بالنهار قواماً بالليل .. ».

توكل صادق ويقين راسخ:

وحيث أن التوكل على الله تعالى زاد المتقين، واليقين بالله شعار
المؤمنين الصادقين يملأ قلوبهم بالثقة والإطمئنان والعزة والارتفاع على
جميع عقبات الحياة.

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المازندراني .

(٢) نهج البلاغة من كتاب إلى عثمان بن حنيف رقم ٤٥ ص ٤١٦ .

فقد كان أمير المؤمنين (ع) قائداً لأهل اليقين بعد رسول الله (ص) ويعسوباً للمتوكلين.

وهذه سيرته تتحفنا بالعديد من الشواهد في هذا المضممار: - فعن الإمام الصادق (ع) قال: كان لعلي (ع) غلام اسمه قنبر، وكان يحب علياً حباً شديداً، فإذا خرج علي (ع) خرج على أثره بالسيف فرآه ذات ليلة، فقال له: يا قنبر مالك؟

قال: جئت لأمشي خلفك، فإن الناس كما تراهم يا أمير المؤمنين فخفت عليك.

قال: ويحك أمن أهل السماء تحرسني أم من أهل الأرض؟

قال: لا بل من أهل الأرض.

قال (ع): إن أهل الأرض لا يستطيعون بي شيئاً إلا بإذن الله عز وجل فارجع. فرجع^(١).

وعن أبي عبد الله (ع) قال: «إن أمير المؤمنين جلس إلى حائط يقضي بين الناس.

فقال بعضهم: لا تقعد تحت هذا الحائط فإنه معور،

فقال أمير المؤمنين: حراس أمراً أجله.

فلما قام أمير المؤمنين (ع) سقط الحائط.

وكان أمير المؤمنين (ع) مما يفعل هذا وأشباهه، وهذا اليقين^(٢).

(١) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١ نقلاً عن التوحيد للصدوق.

(٢) نفس المصدر ص ٦ نقلاً عن أصول الكافي.

وعن سعيد بن قيس الحمداني قال «نظرت يوماً في الحرب إلى رجل عليه ثوبان، فحركت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين (ع) .

فقلت: يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضع؟

فقال: نعم يا سعيد بن قيس، إنه ليس من عبد إلا وله من الله عز وجل حافظ وواقية، معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر، فإذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء»^(١).

هذا هو علي (ع) في قوة يقينه بالله، وشدة توكله عليه سبحانه.

مصاديق من زهد امام (ع):

ولقد كان الزهد معلماً بارزاً من معالم شخصية الإمام (ع)، وسمّة مميزة زينه الله تعالى به فعن عمار بن ياسر (رض) قال: قال رسول الله (ص) لعلي . «إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها، هي زينة الأبرار عند الله: الزهد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ - تعيب - من الدنيا ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهبك حب المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً»^(٢).

وقد كان من شواهد تلك الصفة التي حباه الله تعالى بها:

أن زهد الإمام (ع) عن كل لذات الحياة وزينتها وتوجه بكل وجوده نحو الآخرة، وعاش عيشة المساكين وأهل المتربة من رعيته.

لقد زهد الإمام (ع) بالدنيا وزخرفها زهداً تاماً وصادقاً:

زهد في المال والسلطان، وكل ما يطمع به الطامعون.

فلقد عاش في بيت متواضع لا يختلف عما يسكنه الفقراء من

(١) نفس المصدر.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٩٤ ط ١ المطبعة العلمية قم.

الأمة، وكان يأكل الشعير تطحنه امرأته أو يطحنه بنفسه قبل خلافته وبعدها، حيث كانت تجيء الأموال إلى خزانة الدولة التي كان يضطلع بقيادتها من شرق الأرض وغربها. وغالباً ما كان يلبس أبسط أنواع الثياب، فكان ثمن قميصه ثلاثة دراهم.

وقد بقي ملتزماً بخطه في الزهد طوال حياته، فقد رفض أن يسكن القصر الذي كان معداً له في الكوفة حرصاً منه على التآسي بالمساكين^(١).

وهذه بعض المصاديق كما تروىها سيرته العطرة:

فعن الإمام الصادق (ع) يقول: «كان أمير المؤمنين أشبه الناس طعمة برسول الله (ص) يأكل الخبز والخل والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم»^(٢).

وعن الباقر (ع) قال: «ولقد ولي خمس سنين وما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعاً ولا أورث بيضاً ولا حمراً»^(٣).

وعن عمر بن عبد العزيز قال «ما علمنا أن أحداً كان في هذه الأمة بعد رسول الله (ص) أزهد من علي بن أبي طالب، ما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة»^(٤).

وعن الأحنف بن قيس قال: «دخلت على معاوية، فقدم إلي من الحلو والحامض، ما كثر تعجبي منه، ثم قال: قدموا ذاك اللون،

(١) علي وحقوق الإنسان، جورج جرداق ص ٧٥ ط. ١٩٧ بيروت.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٣٣٠ عن المحاسن.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ج ٥١ ص ٣٦.

(٤) تذكرة الخواص ص ١١٧.

فقدموا لونا ما أدري ما هو...!

فقلت: ما هذا؟

فقال: مصارين البط محشوة بالمش ودهن الفستق قد ذر عليه السكر!!

قال الأحنف: فبكيت.

فقال معاوية: ما يبكيك؟

فقلت: لله در ابن أبي طالب، لقد جاد من نفسه بما لم تسمع به أنت ولا غيرك!

قال معاوية: وكيف؟

قلت: دخلت عليه ليلة عند إفطاره..

فقال لي: قم فتعش مع الحسن والحسين، ثم قام إلى الصلاة، فلما فرغ دعا بجراب مختوم بخاتمه، فأخرج منه شعيراً مطحوناً، ثم ختمه.

فقلت: يا أمير المؤمنين لم أعهدك بخيلاً، فكيف ختمت على هذا الشعير.

فقال: لم أختمه بخلا، ولكن خفت أن يبسه الحسن والحسين بسمن أو أهالة!

فقلت: أحرام هو؟

قال: لا، ولكن على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيهم في الأكل واللباس، ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدر عليهم ليراهم الفقير، فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغني فيزداد شكراً

وتواضعاً»^(١).

وعن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي (ع) بالكوفة، وبين يديه رغيف من شعير، وقدح من لبن، والرغيف يابس، فشق علي ذلك.

فقلت: لجارية له يقال لها فضة: ألا ترحمين هذا الشيخ، وتنخلين له هذا الشعير.

فقلت: .. إنه عهد إلينا ألا ندخل له طعاماً قط..!

فالتفت الإمام إلي.

وقال: ما تقول لها يا ابن غفلة، فأشبهته...

وقلت: يا أمير المؤمنين ارفق بنفسك.

فقال لي: ويحك يا سويد؟ ما شبع رسول الله (ص) وأهله من خبز بر ثلاثاً تباعاً حتى لقي الله، ولا نخل له طعام قط..»^(٢).

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: روي علي (ع) أزار مرقوع، فغوتب في ذلك؟

فقال: يخشع له القلب ويقتدي به المؤمن^(٣).

وعن الغزالي يقول: «كان علي بن أبي طالب يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره»^(٤).

(١) نفس المصدر ص ١١٨: يبسه: يضع عليه السمن، والإهالة الشحم أو ما أذيب منه ونحوهما من أدام.

(٢) تذكرة الخواص ص ١٢٠.

(٣) نفس المصدر والإمام علي بن أبي طالب - محمد رضا ص ١٢.

(٤) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٦٦ عن الإحياء للغزالي.

هذا هو علي في شدة زهده ورغبته عن الدنيا وزخارفها، وفي عظيم اقتدائه برسول الله (ص) وفي مواساته لأهل المتربة من أمته (ص)، فهل حدثك التاريخ عن زعيم كعلي (ع)؟ تجبى إليه الأموال من الشرق والغرب، وعاصمته الكوفة - تقع في أخصب أرض الله وأكثرها غنى يومذاك، بيد أنه يعيش أبسط عيش مواسياً لأقل الناس حظاً في العيش في هذه الحياة.. يأكل خبز الشعير دون أن يخرج نخالته.. ويكتفي بقميص واحد لا يجد غيره عند الغسل.. ويحرم على نفسه الأكل من بيت المال.. ويرقع مدرعته حتى يستحي من راقعها^(١). منجسداً بذلك أرفع شعار للزاهدين «.. فوالله ما كنزت من دنياكم تبرأ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوب طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منه كقوت أتان دبيرة، ولهي في عيني أوهى وأوهن من عصفه مقرة»^(٢).

صدقة الإمام (ع):

ولا نريد أن نذهب بعيداً في طرح الشواهد على تعاهد الإمام علي (ع) لأمر الصدقة، قبل أن نستقي من القرآن الكريم نذاج من صدقة الإمام (ع) عطرتهآ آيات الله تعالى بالثناء الجميل، ورسمت أبعاد الثواب الإلهي العظيم الذي لا يعلم مداه غير الله الذي أعده تبارك وتعالى لأمر المؤمنين (ع):

(١) | للاستزادة من شواهد زهد الإمام (ع) راجع بحار الأنوار / ٤٠ وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ومناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب المازندراني ج ١ وغيرهم.

(٢). كتابة إلى عثمان بن حنيف رقم النص في نهج البلاغة ٤٥ باب الرسائل، التبر، فتاة الله والفضة قبل الصياغة. الوفرة: المال. الطمر: الثوب. الخلق البالي. إتان دبيرة: التي عقر ظهرها فقل أكلها.

ففي حادثة إطعام علي (ع) وأهل بيته (ع) للمسكين واليتيم والأسير على مدى ثلاثة أيام وإيثارهم لهم على أنفسهم، واكتفائهم بالماء وهم في أيام صوم متتالية.. تنزلت آيات الله تعالى مسجلة أعظم مآثر علي (ع) في ضمير الوجود حيث ستبقى ترددتها الآفاق والألسنة وصفحات المجد ما شاء الله تعالى.

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَيْبًا قَمَطِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَخَرِيرًا﴾.

(الإنسان / ٨ - ١٢).

وليس المهم في الأمر حجم ما قدمه الإمام (ع) لأولئك المحتاجين، فإن الكثير من الناس يبذلون أضعاف ذلك.

ولكن شتان بين من ينفق لوجه الله خالصاً دون شائبة، وبين من ينفق من أجل غرض دنيوي أو جاه أو ذكر يشاع بين الناس. كما أنه شتان بين من ينفق كل ما لديه وهو أحوج ما يكون إليه وبين من ينفق بعض ما لديه..

وهكذا يختلف التقويم عند الله تعالى بين ذا وذاك!

وفي حادثة تصدق علي (ع) بخاتمه على مسكين استبذت به الحاجة، فطاف على الناس فلم يجد من يسد خلته، فأشار إليه علي (ع) وهو يصلي في مسجد رسول الله (ص) ومنحه خاتماً في يده.

فنزل القرآن الكريم على رسول الله (ص) مبيناً فضل ما أقدم عليه الإمام (ع) واستعمل القرآن المناسبة لإرشاد الأمة إلى أن علياً (ع) مرجعها الفكري والعملية بعد رسول الله (ص).

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

(المائدة / ٥٥ - ٥٦)

وهذه الآية الكريمة من أكثر النصوص دلالة على أن العمل الصالح في منظور الله تبارك وتعالى إنما هو بدوافعه لا بحجم منافعه .

فليس المهم أن تعطي كثيراً، ولكن الأساس في الأمر نية العطاء فالتقييم الرباني إنما يدور مدار النية حيث تدور، فكلما اقتربت من الله تعالى وابتغيت رضوانه كان ثوابك أعظم وأجل . .

ومن المناسب أن نطرح إضافة إلى ذلك مصاديق من سيرة الإمام (ع) في هذا المضمار مما روته كتب التاريخ .

فعن أبي عبد الله الصادق (ع) قال «كان أمير المؤمنين يضرب بالمر - المسحاة - ويستخرج الأرضين، وأنه أعتق ألف مملوك من كديده»^(١).

وعن أيوب بن عطية الحذاء قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: «قسم نبي الله الفيء، فأصاب علياً أرضاً، فاحتفر فيها عيناً، فخرج ماء ينبع كهيئة عنق البعير، فسامها ينبع، فجاء البشير يبشر. فقال (ع): بشر الوارث هي صدقة بنة بتلاء في حجيج بيت الله، وعابري سبيل الله لا تباع، ولا توهب ولا تورث فمن باعها أو وهبها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»^(٢).

(١) البحار ج ٤١ ص ٧٧ عن الكافي ج ٥.

(٢) نفس المصدر ص ٤٠ عن الكافي ج ٧.

وعن أحمد بن حنبل في الفضائل: أنه كانت غلة علي أربعين ألف دينار فجعلها صدقة»^(١).

والحديث عن حرص الإمام (ع) على تعاهد أمر الصدقة في سبيل الله تعالى يذكرنا بالنفس السخية التي يمتاز بها أمير المؤمنين (ع).

فكثرة أدائه للصدقة وشدة بذلك لها وإن كان يعكس صورة صادقة عن جود الإمام (ع) وسخائه، إلا أن سيرته العطرة تكشف إلى جانب ذلك وجهاً آخر من شخصية الإمام.

فقد كان عليه السلام أسخى من الغيث على الأمة التي عايشها لا أقصد بهذا جوده بنفسه من أجل حفظ الرسالة ومسيرة الإسلام التاريخية، ذاك الذي يتجلى عبر البطولات التي أبداه (ع) في حروب الإسلام كلها، فحديث كهذا.. يتطلب بمفرده سفرًا كاملاً، وإنما نقصد ما يتعلق بالسخاء بالمال.

فلقد اعترف بنجود الإمام (ع) وسخائه أشد الناس عداوة له: معاوية بن أبي سفيان الذي ما برح ينسج الأكاذيب والإفتراءات لتشويه سمعة الإمام (ع) غير أنه لم يستطع أن ينكر فضيلة الجود عند علي (ع) فقد قال له يوماً مخفي ابن أبي مخفي الضبي: جئتك من عند أبخل الناس فقال ابن أبي سفيان: ويحك كيف تقول أنه أبخل الناس، لو ملك بيتاً من تبر - ذهب - وبيتاً من تبن لأنفذ تبره قبل تبينه^(٢).

(١) المناقب - لابن شهر آشوب ص ٣٤٦ والبحار ج ١ / ٤١ ص ٤٣ عن كشف المحجة لابن طاووس.

(٢) مررنا مروراً عابراً على مواقف الإمام وبطولاته العسكرية في القسم الأول فراجع.

(٣) شرح النهج ج ١ ص ٢٢.

ويقول الشعبي يصف الإمام (ع): كان أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال لا لسائل قط^(١).

الجهاد في سبيل الله:

وحياة علي أمير المؤمنين (ع) كلها جهاد في سبيل الله تعالى في مرحلة الدعوة، وبعد قيام الدولة الإسلامية، وإذا كان قد وقى الرسول (ص) بنفسه وفداه بوجوده وتعرض لأخطار تأمر جاهلي على حياة رسول الله (ص) عند مبيته على فراشه في ليلة الهجرة المباركة، من أجل أن يصرف عنه شر عتاة الجاهلية. فإن علياً قد تحولت حياته بعد الهجرة إلى المدينة المنورة إلى حلقات متسلسلة من ذلك النوع الجهادي العظيم، فقد كان حامل لواء الزحف الإسلامي في كل غزوات أخيه رسول الله (ص) وطلبة المجاهدين في ساحات الجهاد، وكلما حزبت الأمور وحمي الوطيس انتدبه رسول الله (ص) لكشف زحف العدو عن حياض المسلمين..

وكانت كل مواقفه الجهادية من النوع المصيري الذي يحمي الرسالة ويكشف عنها خطر التصفية المحقق والإجهاز الخطير على وجودها، تجلي ذلك في بدر جين صفى الكثير من رؤوس الوثنيين وملأ بها ساحة المعركة.

وفي «أحد» حين أطبق جيش الضلال على مسكر الإيمان وكانت الغلبة للعدو، نهض الإمام (ع) بدور عرقلة تقدمهم بنيت بأدر إلى تصفية حملة الألوية من بني عبد الدار واحداً تلو الآخر.

وفي غزوة الأحزاب حين بلغت القلوب الحناجر وبلغ الضيق والهلع بالمسلمين كل مبلغ نهض الإمام (ع) بالأمر وأرهب العدو وأعاد

(١) نفس المصدر.

للمسلمين الثقة بالنفس حين قتل أبرز قوادهم عمرو بن ود العامري .
 حيث كان قتل العامري حداً فاصلاً بين المعسكرين إذ تلاه
 انهزام جيش الأحزاب مع ما امتاز به من ضخامة في العدد والعدة .
 وعلي (ع) هو الذي اقتحم حصون خيبر ودخل عليهم عنوة ،
 ففتح الله على يديه حصون اليهود الرهيبة .
 وكم سطر لك من بطولات علي (ع) وصفحات جهادات المشرقة
 التي تشع بالمجد والعزة والإخلاص؟^(١) .
 فدونك تاريخ الإسلام في عصره الأول: في عهد
 رسول الله (ص) فأنعم النظر في صفحاته كي تحدثك بفضل علي (ع)
 على الإسلام رسالة، وأمة، وتاريخاً .
 على أن الجانب العبادي في جهاد علي (عليه السلام) ليس في
 حجم البطولات وعدد المعارك التي خاض غمارها . فحسب وإنما في
 صدق النية وحجم الإخلاص الذي امتلأ به قلب علي (ع) وهو يخوض
 تلك الحروب ببسالة فائقة وشجاعة نادرة وصمود لا يرد .
 ومن أجل ذلك كان القرآن الكريم يثني على تلك الروح التي
 كان يحملها أمير المؤمنين عبر كفاحه من أجل إعلاء كلمة الله في
 الأرض .

فها هو القرآن الكريم يثني على علي (ع) يوم فدى بنفسه
 رسول الله (ص) «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله» (البقرة
 ٢٠٧) ويكشف بعمق عن صدق نية الإمام (ع)^(٢) .

(١) راجع الحلقة الأولى من دراستنا أمير المؤمنين (ع) فصل بأس في الحرب .
 (٢) راجع تفسير الآية في الكشف للزمخشري والواحدي في أسباب النزول وابن الأثير
 في أسد الغابة - يشرى - يبيع .

وها هو كتاب الله العزيز يقطع بأن جهاد علي (ع) وبطولاته وتضحياته كانت من أجل الله وإعلاء كلمته في دنيا الناس، ولا يمكن أن تقرن بأي لون من ألوان العمل الآخر. فبسبب الثمن الباهظ الذي يتطلبه الجهاد، وبسبب الدافع الإيماني المخلص الذي لا تشوبه شائبة راحت آيات الله تعالى تحدد الموقع الرفيع الذي يحتله علي (ع) في دنيا المتقين.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

(التوبة / ١٠٩)

فعلى أثر حوار تفاخري بين طلحة بن شيبه والعباس بن عبد المطلب، قال فيه طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي.

فقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها!

وفيما كانا يتفاخران مر الإمام (ع) فافتخر عليهما بقوله: «لقد صليت قبل الناس أنا صاحب الجهاد» فنزل قول الله تعالى في ذلك كاشفاً عن المستوى العظيم الذي يتبوأه علي (ع) من ناحية عمله الإسلامي: ضخامة وإخلاصاً^(١)، بعداً وجوهراً.

(١) تفسير الطبري عن أنس ج ١٠ ص ٥٩ وأسباب النزول للواحدي ص ١٨٢ والقرطبي في تفسيره ج ٨ ص ٩١ والرازي في تفسيره والنسفي والسيوطي وسواهم، نقلاً عن فضائل الخمسة ج ١ ص ٢٧٩.

الأخلاق الاجتماعية

- ١: إشاعة العدل الاجتماعي بين الناس.
- ٢: تواضع الامام.
- ٣: حلم الامام.
- ٤: التورع عن البقي.
- ٥: شواهد من صبر الامام.

بمقدور المتتبع أن يتخذ من وصف ضرار بن ضمرة لأمر المؤمنين (ع) منطلقاً للدخول في عالمه الرحيب.

فقد دخل ضرار على معاوية - أيام استكان الناس وأسلموا لمعاوية القياد - فألح على الرجل أن يصف له علياً (ع) فتردد ضرار كثيراً، فلما مضى معاوية في إصراره قال ضرار:

أما إذا لا بد «فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته.

كان والله غزير الدمعة، كثير الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، بعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب.

كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتينا، ويأتينا إذا دعواناه.

ونحن والله مع قربه منا، ودنوه إلينا لا نكلمه هية له، ولا نبديه لعظمته، فإن تسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم.

يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، ولا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ليلة، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل قائماً في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تملل السليم، ويكي بكاء الحزين، وكأنني أسمعه وهو يقول:

يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم إلي تشوقت، هيهات، هيهات!! قد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير. . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق (١).

وهذا الوصف للإمام (ع) على وجازته يكشف بعمق عن الإطار العام لشخصية الإمام (ع) في شتى ملامحها في الحقل الروحي والاجتماعي، في علاقته بربه، وعلاقته مع نفسه، وكيفية تعامله مع الناس من حوله.

وحيث قد عقدنا هذا الفصل للحديث عن الأخلاق الاجتماعية التي التزم بها (ع) في حياته العملية، فإن حديث ضرار يضع في أيدنا رأس الخيط الذي يوصلنا إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية التي سلكها أمير المؤمنين في حياته (كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويتدثنا إذا أئيناه، ويأتينا إذا دنوناه، ونحن والله مع قربه منا ودنوه إلينا لا نكلمه هية له، ولا نبتديه لعظمته. . يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، ولا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. . ».

(١) تذكرة الخواص ص ١٢٧ - ١٢٨ والإمام علي بن أبي طالب - محمد رضا ص ١٢ . تشوقت: تزينت .

ويبدو أن هذا اللون من علاقة أمير المؤمنين مع قومه إنما كان في أيام حكمه، مما يطرح بين أيدينا تصوراً ناضجاً عن عظمة أمير المؤمنين (ع) وبلوغه القمة في مدارج الكمال والفضيلة، فمع أن الإمام (ع) كان يحتل موقع القيادة في دنيا الناس، وييده أزمة حياتهم الفكرية والاجتماعية، نراه كواحد من عامة الناس، وكان موقعه ليس في أعلى مركز قيادي فهو يلغي الحواجز والألقاب، ويعامل الأمة كما لو كان واحداً من عامتها بقلب حان، ونفس متواضعة، وحب صادق عميق.. وهي روح لم يألّفها التاريخ الإنساني منذ الأماد الموعلة في القدم حتى اليوم في قيادة غير قيادة رسول الله (ص) ووصية علي (ع)..

وقد وفق الإمام (ع) توفيقاً عظيماً في قيادة الواعين لأهمية قيادته في دنيا المسلمين على الأقل.

فقد كانت قيادته مبنية على الحب والإجلال معاً فبقدر ما كان يبذل من دماء وده للأمة، كان أتباعه يمنحونه الكثير من البود والتعظيم..

الأمر الذي يذكّرنا بسياسة رسول الله (ص) ويطرحها واقعاً حياً في دنيا الناس^(١)، فالتجربة واحدة في هذا المضمار وسواء، وإن تغير الموقع التاريخي.. ورحم الله صمصمة ابن صوحان حيث يقول في وصفه للإمام (ع) «كان فينا كأحدنا لين جانب، وشدة تواضع، وسهولة قياد، وكنا نهابه، مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه»^(٢) وتتجلى عظمة الإمام (ع) في أخلاقه الاجتماعية من خلال المبادئ الآتية:

(١) راجع القسم الثالث من سيرة المصطفى (ص) للمؤلف.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥.

أولاً- اشاعة العدل الاجتماعي بين الناس:

جاءت الخلافة للإمام (ع) في ظروف بالغة الخطورة والتعقيد، فذووا النفوذ من الناس قد ألفوا الإستئثار واستراحوا إليه، وليس يسيراً أبداً أن يذعنوا لأية محاولة إصلاحية تضر بمصالحهم الذاتية.

ثم إن المطامع قد تنبعت لدى الكثير من الرجال، بعد أن أصبحت الخلافة مغنماً لا مسؤولية لحماية الشريعة والأمة، ولقد كان الإمام (ع) مدركاً لحقيقة الموقف بدقائقه وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمة على بيعته بعد مقتل الخليفة عثمان قائلاً: «دعوني والتمسوا غيري فأنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة تنكرت...»^(١). ولكن جماهير المدينة المنورة، وجماهير الثوار من العراق ومصر أصروا على استخلافه عليهم، فنزل الإمام عند رغبتهم، ولكن وفقاً لشروطه الخاصة - هو «واعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصنع إلى قول القائل وعتب العاتب»^(٢).

ولقد كانت أولى مهام الإمام (ع) أن يجسد العدالة الاجتماعية في دنيا الناس ويمنح المنهج الإسلامي فرصة في البناء والتغيير على شتى الأصعدة، فدشن (ع) خطته الإصلاحية، بإلغاء السياسة المالية والاجتماعية والإدارية التي كان معمولاً بها ليوفر الجو المناسب لتطبيق المخطط الإسلامي في العدالة الاجتماعية:

أ - استرجاع الأموال التي تصرف بها بنو أمية من بيت المال.

(١) و (٢) نهج البلاغة ص ١٣٦ تبويب صبحي الصالح.
المحجة: الطريق، تنكرت: تغيرت علائقها وأصبحت مجهولة.

ب - واستغنى عن كثير من الولاة الذين أساءوا التصرف، وخالفوا أمر الله تعالى، وتخطوا منهجه الأقوام الذي ارتضاه لعباده..

ج - ثم بادر إلى تبني سياسة المساواة في توزيع المال والحقوق، منهياً بذلك دور الطبقية والتمييز والأثرة:

«المال مال الله، يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد»^(١).

«إلا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة، إذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، حرمانا ابن أبي طالب حقوقنا»^(٢).

وتبنى الإمام سياسة العدل الشامل:

- في معاملة أفراد الأمة.

- وفي منهج الحقوق.

- وفي توزيع المسؤوليات.

وكان منهج الإمام (ع) في العدل لا يناظره إلا منهج رسول الله (ص) إن لم نقل أنه منهج الرسول (ص) بالذات.

فهلم نضع إلى منهجه المتبني في سياسة الأمة بالعدل من خلال حديثه (ع). «... والله لئن أبيت على حسك السعد إن مسهداً، وأجر في الإغلال مصفداً، أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام... والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله في نملة أسلبها

(١) و(٢) نفس المصدر.

جلب شعيرة ما فعلت، وأن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي، ونعيم يفني ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»^(١).

«الدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له»^(٢).

«وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزائمه حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً...»^(٣).

ولم تكن هذه المبادئ التي يتحدث عنها الإمام (ع) ذاته، آمنيات وأفكاراً طرحها في دنيا المبادئ والأفكار، وإنما جسدها واقعاً جياً قبل أن يطرحها فكراً..

وهي خصيصة من خصائص علي (ع) فالقول عنده يعقب العمل أو يجري من طبيعته..

ومن أجل ذلك ملأ الإمام (ع) دنيا المسلمين قسطاً وعدلاً وحقق انقلاباً في واقع المسلمين على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وفقاً لمقتضيات العدل الإلهي فأعاد بذلك أيام رسول الله (ص) في صفائها وإشراقها وعدلها الشامل..

فحسبك أن أمير المؤمنين (ع) كان يرتدي القميص المرقوع^(٤) ويبالغ في رقع مدرعته كلما تمزق جانب منها حتى يبلغ الأمر بالإمام (ع) أن يستحي من راقعها^(٥).

(١) نهج البلاغة تبويب د- صبحي الصالح رقم النص ٢٢٤.
حسك: شوك.

والسعدان: نبت ضائل ترعاه الإبل.

(٢) روائع من نهج البلاغة ص ١٢٣.

(٣) نهج البلاغة رقم النص ١٣٦.

(٤) و (٥) تذكرة الخواص ص ١٢٥.

وكان يخرج إلى السوق لبيع سيفه كي يشتري بثمانه أزراراً^(١) وهو في علوشأنه وعظمة مركزه الذي يحتل في دنيا المسلمين حيث تجبى إليه الأموال من أقاليم الدولة الإسلامية جميعها، وثروات الدولة تحت تصرفه..

وكان يأكل خبز الشعير بنخالته وكان غالب أدامه اللبن أو الملح والماء..

ولم يكن للإمام (ع) غير قميص واحد لا يجد غيره عند غسله^(٢).

ومع شدة زهد الإمام (ع) في الدنيا، فقد كان حريصاً على توفير الرفاه الاقتصادي للأمة التي اضطلع بقيادتها، فكان يقسم الذهب والفضة بين الناس، ويطعمهم اللحم والخبز^(٣) ويعمل كل ما في وسعه لرفع غائلة الفقر عنهم.

- وكان بيت المال لا يكاد ترد إليه الأموال حتى يبادر الإمام (ع) إلى توزيعها على الناس، لإعطاء كل ذي حق حقه.

- وكان منهاجه في توزيع المال التزام أقصى درجات العدالة...

فها هو يخاطب الزبير وطلحة حينما كبر عليهما منهاج المساواة في العطاء «... فوالله ما أنا وأجيري هذا إلا بمنزلة واحدة»^(٤).

وها هو سهل بن حنيف يخاطبه: يا أمير قد اعتقت هذا الغلام، فأعطاه ثلاثة دنائير مثل ما أعطى سهل بن حنيف»^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٠٠.

(٢) المناقب للمازندراني ج ٢ ص ٩٧ عن أحياء العلوم للغزالي.

(٣) من حديث للإمام الصادق (ع) البحار ج ٤٠ ص ٣٣٠.

(٤) و (٥) مناقب ابن شهر آشوب ج ١ ص ٣٧٨.

ويأتيه عاصم بن ميثم - وكان الإمام (ع) يقسم أموالاً - فقال .

- يا أمير المؤمنين إني شيخ مثقل .

فقال الإمام (ع) :

والله ما هي بكدي ولا بترائي عن والدي ، ولكنها أمانة أوعيتها^(١) .

وجاءه عبد الله بن زمعة - وهو من شيعته - يطلب منه مالاً .

فقال له الإمام (ع) :

- إن هذا المال ليس لي ولا لك ، وإنما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم ، فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم ، وإلا فجنة أيديهم لا تكون لغير أفواههم^(٢) .

ويدخل عليه عمرو بن العاص ليلة وهو في بيت المال يتولى بعض شؤون المسلمين ، فأطفأ الإمام (ع) السراج وجلس في ضوء القمر^(٣) ، فالسراج ملك الأمة ، فلا يصح أن يستضيء به ابن العاص ، وهو في زيارة خاصة للإمام (ع) !

حرص فريد على أموال الأمة ، وسهر دائم على مصلحتها وعمل دائم من أجل إسعادها وهدايتها وإصلاح شأنها .

على أن تعاهد أمر الأمة من لدن علي (ع) ليس محصوراً في إطار المال وتوزيعه وإنما يمتد لكي يشعر الإنسان بكرامته ويعيد وعيه

(١) نفس المصدر ص ٣٧٧ .

(٢) البحار ج ٤١ ص ١١٥ ونهج البلاغة رقم النص ٢٣٢ .

(٣) المناقب ص ٣٧٧ .

بحقه في الحياة الحرة الكريمة، ويعلمه أن يتمرد على الظلم والكبت
وسلب الإرادة:

- «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً».

- «أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم
والإحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا
الجاهل يفضلهم بجهله ولا الجافي يقطعهم بجفائه، ولا الحائف
للدول، فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب
بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك
الأمة»^(١).

- «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما
يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بين
استثقالاً في حق قيل لي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل
أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه! فلا تكفوا عن مقالة بحق
أو مشورة بعدل»^(٢).

وتمتد ظلال العدالة في عهد أمير المؤمنين (ع) فيرمي أسواقهم
من ناحية المكايل والمعروض من السلع وطبيعة المعاملات فيها،
فيخرج كل يوم يتفقد أسواق المسلمين بنفسه فيرشد الضال، ويهدي
المقصر إلى طريق الحق، ويأمر بكل معروف، وينهى عن
المنكر. (٣).

ولشدة حرص الإمام (ع) على تطبيق العدالة الإسلامية بأروع

(١) نهج البلاغة رقم النص ١٣١.

(٢) نهج البلاغة رقم النص ٢١٦.

(٣) راجع البحار ج ٤١ ص ١٠٤ للإطلاع على منهاجه في مراقبة حالة السوق.

صورها في دنيا الناس، وعلى شتى الأصعدة أنه وجد درعه عند رجل نصراني، فوقف معه أمام القاضي ليقاضيه في الأمر.

فقال الإمام (ع): إنها درعي، ولم أبع، ولم أهب.

فسأل القاضي الرجل النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟

قال الرجل: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

فالتفت القاضي للإمام (ع): طالباً بينة تشهد أن له الدرع.

فضحك الإمام (ع) معلناً أنه لا يملك بينة من ذلك النوع. فقضى القاضي بأن الدرع للنصراني، فأخذها ومضى، والإمام ينظر إليه.

إلا أن الرجل عاد وهو يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدينني إلى قاض يقضي عليه..

- الدرع - والله - درعك يا أمير المؤمنين، وقد كنت كاذباً فيما أدعيت^(١).

وحصيلة الأمر أن يعلن الرجل إسلامه ويخلص في الوقوف تحت راية الإمام (ع) مؤمناً مجاهداً ذائداً عن رسالة الهدى..

وبقدر ما كان الإمام (ع) حريصاً على تجسيد روح العدالة التي صدى بها رسول الله (ص) لإخراج الإنسان من ظلام الظلم والقهر والكبت، كان حريصاً كذلك على إلزام ولاته وقضاته وقادة جيوشه، وجباة الأموال بالتزام العدل في معاملة الناس، وتحري الحق في

(١) علي وحقوق الإنسان - جورج جرداق ط بيروت ١٩٧٠ ص ٨٧.

الحكم والقضاء وإعطاء الحقوق، وفي جمع المال وحتى في حالات الحرب وسواها . .

وصايا للولاية:

وهذه بعض وصاياه في هذا المضمار:

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإيالك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم أن ما قربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار»^(١).

«أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده . .»^(٢).

ومن توجيهاته (ع) لجباة الأموال:

« . . . انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلماً، ولا تجتازن عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي، فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم، ثم أمض - بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم، فتسلم عليهم، ولا تخدع بالتحية لهم، ثم تقول:

عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله، وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق، فتؤدوه إلى وليه . .»^(٣).

(١) وصيته لعبد الله بن عباس حين ولاه البصرة رقم النص ٧٦ نهج البلاغة.

(٢) نفس المصدر - عهد الإمام (ع) لمالك الإشرحين ولاه مصر.

طيرة: خفة وطيش.

(٣) منهج البلاغة رقم النص ٢٥ - لا تخدع بالتحية: لا تبخل بها عليهم.

«إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج، أو تبيع دابة عمل في درهم، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو»^(١).

ومن تعليماته لجيوشه:

ولقد كان (ع) يوصي جنوده في حالات الحرب ألا يبدأوا بقتال العدو، حتى يبدأهم بالحرب، ولا يقتلوا من ولي دبره عن قتالهم، ولا يقتلوا الجريح ومن عجز عن حماية نفسه أثناء الحرب، ولا يؤذوا النساء بشيء حتى وإن بدأن بسب أو شتم^(٢).

ونحو ذلك من وصاياه (ع).

أرأيت عدلاً رفيعاً كهذا العدل؟

بل هل حدثك التاريخ الإنساني عن رجل يحب الخير حتى لخصومه الذين ناصبوه العدا؟

إنه علي (ع) صاحب القلب الكبير، الذي شمل الناس بحب غامر، فبسط لهم العدل في حياتهم، وأشعرهم بحقيقة الكرامة الإنسانية ووفر لهم غطاء من الأمن والاستقرار في جو الشعور بالمساواة والحياة الحرة الكريمة.

ثانياً- تواضع الامام:

خلق التواضع في معاملة الناس، بقدر ما يكون عبادة إسلامية يندب الشرع الإلهي إليها، كذلك يعبر عن إحدى صيغ التعامل الفاضل بين أبناء الأمة، فهو من وسائل توحيد الكلمة وجمع الشمل،

(١) من وصيته لصاحب الخراج على القادسية وسواد الكوفة أنظر بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٢٨ نقلاً عن الكافي، العفو: الفاضل عن النفقة.

(٢) راجع نهج البلاغة رقم النص ١٤ وغيره.

وإشاعة المودة وإلغاء التفاوت الطبقي .

ولقد كان الإمام علي (ع) مثلاً أعلى في تواضعه كما كان رسول الله (ص) من قبل .

وسيرته العطرة تطرح المزيد من الشواهد على ذلك الخلق الإسلامي الرفيع :

فعن الإمام الصادق (ع) يقول : « كان أمير المؤمنين يحطّب ويستسقي ويكنس ، وكانت فاطمة تطحن وتعجن وتخبز »^(١) .

وكان الإمام (ع) يشتري حاجته وحاجة أسرته الكريمة من السوق بنفسه ، ويحملها بيده ، وهو أمير المؤمنين ، ويحظى باحتلال أرفع مركز في حياة المسلمين ، ولقد كان الناس يسرعون إليه لحمل أشياءه حين يرون ذلك منه ، ولكنه يأبى عليهم ويقول : رب العيال أحق بحمله^(٢) .

وكان (ع) يسير في الأسواق وحده ، لا يصحبه حشم ولا خدم ، ولا جنود ، فيرشد الضال ، ويعين الضعيف ، ويمر بالبقالين والتجار ويأمرهم بالتواضع وحسن المعاملة ويتلو عليهم قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾^(٣) .

ومن عظيم تواضعه (ع) أنه خرج يوماً على أصحابيه وهو راكب ، فمشوا خلفه ، فالتفت إليهم فقال :
- ألكم حاجة ؟ قالوا :

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٣٧٢ .

(٢) نفس المصدر نقلاً عن فضائل ابن حنبل .

(٣) المناقب ص ٣٧٢ وبحار الأنوار / ٤١ ص ٥٤ .

- لا يا أمير المؤمنين، ولكننا نحب أن نمشي معك.

فقال لهم:

- «انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي»^(١).

وقد استقبله زعماء الأنبار وترجلوا وأسندوا بين يديه فقال (ع):

- ما هذا الذي صنعتموه؟ قالوا:

- خلق منا نعظم به أمراءنا.

فقال (ع):

- «والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون به على أنفسكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب، وما أربح الراحة معها الأمان من النار»^(٢).

ومن تواضعه الجرم أكله خبز الشعير واللبن، ولبسه أبسط أنواع اللباس، وترقيعه لثوبه البالي، وبساطته في مسكنه^(٣) ووقوفه بين يدي القاضي مع رجل من عامة الشعب الذي يضطلع الإمام (ع) بقيادته^(٤).

ومن أدبه الكامل تسليمه على النساء^(٥) من قومه، ومشيه مع المرأة لقضاء شأن من شؤونها حتى وإن جلب له الأمر مشقة، فعن الإمام الباقر (ع) قال:

(١) البحار ص ٥٥ عن المحاسن والكافي عن الصادق (ع).

(٢) المناقب ص ٣٧٢ والبحار ج ٤١ ص ٥٥.

(٣) للتفاصيل راجع الحلقة الثانية من هذه الدراسة وبعضاً من فصول هذه الحلقة: كزهة الإمام (ع) وإقرار العدل.

(٤) بحار الأنوار ج ٤١ ص ٥٦ وعلي وحقوق الإنسان - جرداق ص ٨٧.

(٥) الكافي ج ٥ باب التسليم على النساء حديث رقم ٣.

«رجع الإمام (ع) إلى داره في وقت القيظ، فإذا امرأة قائمة تقول:

- إن زوجي ظلمني، وأخافني، وتعدى علي..

فقال الإمام:

- يا أمة الله أصبري حتى يبرد النهار ثم أذهب معك إن شاء الله، فقالت:

- يشتد غضبه عليّ.

فطأ الإمام (ع) رأسه ثم رفعه وهو يقول:

- لا والله أو يأخذ للمظلوم حقه غير متعت! أين منزلك؟

ووقف الإمام (ع) على باب المنزل فقال:

- السلام عليكم، فخرج شاب.

فقال له الإمام (ع):

- يا عبد الله اتق الله، فإنك قد أخفتها وأخرجتها!

فقال الفتى:

- وما أنت وذاك؟ فقال أمير المؤمنين:

- آمرك بالمعروف، وأنهاك عن المنكر تستقبلني بالمنكر وتنكر

لمعروف؟

فأقبل الناس يلقون التحية على الإمام (ع):

- سلام عليكم يا أمير المؤمنين.

فأسف الشاب على ما كان منه وهو يقول:

- يا أمير المؤمنين أقلني عشرتي ، فوالله لأكونن لها أرضاً تطوّني .
فالتفت الإمام إلى المرأة قائلاً :

- يا أمة الله ادخلي منزلك ولا تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه^(١) .

وكان الإمام (ع) قريباً سهلاً هيناً يلقي أبعد الناس وأقربهم بلا تصنع ولا تكلف، ولم يحط نفسه بالألقاب ولا زخرفة الملك، بل كان يتعامل مع الأمة كفرد منها، يعيش مشاكل الضعفاء، ويحب المساكين، ويتودد للفقراء، ويعظم أهل التقوى من الناس .

ولقد كان من شواهد رفقه بالأمة وتواضعه في المعاملة وسهولته، ومرونته : مقابلته لمن يلقاه بالبشر وطلاقة المحيا والإبتسامة الحلوة ويشر الوجه، إلغاء منه للحواجز والرسميات بين القيادة والأمة، وإنهاء لدور الزخرفة والألقاب التي يحيط بها الأمراء والقادة أنفسهم عبر تعاملهم مع الناس .

ولاشتهاره بتلك الروح الاجتماعية السمحة بين عامة الناس حاول أعداؤه أن يشوهوا تلك الميزة في الإمام (ع) ويحولوها إلى عيب ينزونه فيه إمعاناً منهم في تشويه واقع سياسته وجميل صفاته الشخصية والاجتماعية .

فعمرو بن العاص يحدث أهل الشام عن علي (ع) فيقول : إنه ذو دعابة شديدة^(٢) محاولاً الإنتقاص من شأن الإمام (ع) والإمعان في تغطية فضائله، والعمل على كل ما من شأنه تضليل الناس هناك لكي يحال بينهم وبين التطلع لواقع الإمام (ع) وحقيقته .

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥ .

حتى إن الإمام (ع) حين بلغه افتراء ابن العاص قال: «عجبا لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن في دعاية ولاني امرؤ تلعباة»^(١).
ولقد كان معاوية بن أبي سفيان يشيع ما يشيعه ابن العاص كذلك في مناسبة وأخرى.

وما يضير أمير المؤمنين (ع) إذا عابه معاوية وابن العاص، فلقد كان عليه السلام يقتفي أثر رسول الله (ص) في سماحة أخلاقه وطلاقه محياه سواء بسواء.

وكان (ع) يعمل على الالتصاق بالناس للتعرف على ما يعانون حتى أنه كان يمشي في الأسواق ويتابع الحركة التجارية من ناحية الوزن والإسعار ونوعية المعروض من السلع - كما المحنا إليه قبل قليل.

وكان الإمام (ع) حريصاً على متابعة تصرفات الولاة في البلدان، والقادة وجبة الأموال، ويأمرهم بالرفق والتواضع في معاملة الناس.

وما أروع روح التواضع عند علي (ع) كما يصفها ضرار ابن ضمرة في حديثه لمعاوية - الذي افتتحنا به هذا الفصل - «يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، . . كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتينا، ويأتينا إذا دعونا. . يعظم أهل الدين، ويخب المساكين»^(٢).

ثالثاً: حلم الامام:

ولقد كان الإمام (ع) قمة في حلمه وعفوه عمن يسيء الأدب.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥.

تلعباة: كثير المرح واللعب.

(٢) المناقب ج ١ ص ٣٨١.

معه، فهو لا يعرف الغضب إلا حين تنتهك للحق حرمة أو تتعدى حدود الله تعالى، أو يتعدى على حقوق الأمة وتضر مصلحتها.

وخلق الإمام (ع) في الحلم والصفح عن المسيء ظل هو هو لم يتغير، فعلي (ع) في صفحه وحلمه قبل خلافته، كعلي في صفحة وعفوه أيام قيادته المباشرة للأمة، على أن عظمة الإمام (ع) تزداد قوة وجلاء حين يظل يصفح ويمعن في عفوه حتى عن أشد خصومه في وقت يمتلك القدرة على العقاب والإرهاب والقتل.

فهو في أيام خلافته في مركز يؤهله أن يقتص من خصومه، فهو رئيس الدولة، والمطاع الأول بين أتباعه غير أنه مع هذا وذاك ظل يحمل نفس الروح من العفو والتجاوز كما كان رسول الله (ص) سواء بسواء.

وهذه نماذج من عفوه:

- أسر مالك الأشتر (رضي) مروان بن الحكم يوم الجمل فلما مثل مروان بين يدي الإمام (ع) لم يستقبله بسوء قط، وإنما عاتبه على موقفه الخياني اللئيم فحسب^(١) ثم أطلق سراحه ومروان هو هو في حقه على الإسلام والإمام (ع)، وهو في دسائسه ومكره، ودوره الخبيث في تأجيج الفتن في وجه الإمام (ع) أشهر من أن نذكره، فهو الذي عارض البيعة للإمام (ع) وهرب من المدينة المنورة بعد البيعة مباشرة، وهو الذي ساهم في فتنة البصرة، وألهب الناكثين وأغراهم بالتعجيل بها. . إلى غير ذلك من مواقفه الخسيسة.

- ولقد عفا الإمام (ع) كذلك عن عبد الله بن الزبير^(٢) بعد أسره

(١) المناقب ج ١ ص ٣٨ ونهج البلاغة نص ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٢.

يوم الجمل، وعبد الله بن الزبير هو الذي كان يقود الفتنة في حرب الجمل.

- وجيء بموسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان طرفاً في فتنة الجمل فلما وقف بين يدي الإمام (ع) خلى سبيله، ولم يعنفه عن دوره في الفتنة، وإنما طلب منه أن يستغفر الله ويتوب إليه ثم قال:

أذهب حيث شئت، وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع فخذ، واتفق الله فيما تستقبله من أمرك وأجلس في بيتك^(١).

ومن عظيم عفوه ما رواه الإمام الباقر (ع) قال: «كان علي (ع) إذا أخذ أسير في حروب الشام أخذ سلاحه ودابته واستحلفه أن لا يعين عليه»^(٢).

أرأيت موقفاً إنسانياً كهذا الموقف؟

لقد كان الإمام (ع) مدركاً أن الذين يقاتلونه من أهل الشام إنما يقاتلونه وهم عن حقيقته غافلون، فقد أغراهم معاوية بالمال، وسد عليهم منافذ التفكير والوعي على الحقائق بما استخدمه من وعاظ وسوء وواضعي حديث ممن باعوا ضمائرهم للإنحراف صوب الجاهلية.

وبناء على هذا الوعي العلوي لحقيقة مقاتليه ممن أغراهم معاوية وغرر بهم، فقد سبق حلم الإمام (ع) عدله في معاملتهم فلم يعاقب من اتخذ منهم أسيراً، وإنما يجرده من أداة الشر، ويضعه أمام الله والضمير كي لا يعود لقتال معسكر الحق الذي يقوده الإمام (ع).

(١) بحار الأنوار ج ٤١ ص ٥٠ نقلاً عن النهاية.

الكراع: جمع الخيل.

(٢) المناقب ج ١ ص ٣٨١ عن ابن بطة والسجستاني.

ويذكرنا هذا الموقف الكريم بموقف معاوية وعمرو بن العاص اللذين كانا يصران على قتل الأشراف من جيش الإمام (ع)، بيد أنهما خشيا الفضيحة إذا أقدما على ذلك بعد أن خلى الإمام (ع) عن أسراهم ابتداء فعدل معاوية وصاحبه عن موقفهما لا لطيب خلق منهما، وإنما خشية نقمة الرأي العام الإسلامي^(١).

ولم نذهب بعيداً وتلك معركة صفين تحمل أحداثها الكثير الكثير من مواقف الصفيح العلوي... فحين سبق جيش معاوية إلى ماء الفرات أصر على منع الماء عن جيش علي (ع)... فأوفد الإمام (ع) لمعاوية وفداً كي يغير موقفه. ولكنه مضى في إصراره وموقفه اللا أخلاقي...

فاضطرب الإمام (ع) لتحريك قوة من جيشه لفك الحصار. وكانت النتيجة أن سيطر جيش الإمام (ع) على الماء... ولكن على حمله حلمه الرفيع وكرم نفسه على بذل الماء لخصمه قائلاً لجنوده:

«خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم. وخلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصكم عليهم بظلمهم وبغيهم»^(٢).

ولقد كان مقدراً للإمام (ع) أن يذيقهم الهزيمة الشاملة لو أنه منعهم الماء وحال بينهم وبينه، ولكنها الأخلاق الإلهية التي يتمسك بها ويجسدها حية في دنيا الناس تأبى عليه ذلك اللون من المواقف... حتى يقع التمييز الحاسم بين منهج الهدى والصراط المستقيم في الفكر والعمل الذي يمثله علي (ع) وبين سبيل الانحراف والالتواء واللا أخلاق التي يجسدها معاوية بن أبي سفيان...

(١) الإمام علي بن أبي طالب - محمد رضا ص ٢٢٣.

(٢) نفس المصدر ص ١٧٣.

ولنا أن نعرض شواهد من حلم الإمام (ع) وعظيم صفحه في حياته الخاصة كذلك:

- «دعا الإمام (ع) غلاماً له مراراً فلم يجبه، فخرج فوجده على باب البيت فقال:

ما حملك على ترك إجابتي؟ قال:

كسلت عن إجابتك، وأمنت عقوبتك. فقال (ع):

الحمد لله الذي جعلني ممن يأمن خلقه، أمض فأنت حر لوجه الله»^(١).

- وقد خاطبه رجل من الخوارج بقوله «.. قاتله الله كافراً ما أفقها».

فوثب أصحاب الإمام (ع) ليقتلوه.. فقال الإمام (ع):

رويداً إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب^(٢).

وهكذا شمل الرجل بعفوه، وحال بين القوم وبين معاقبته.

هذا وفي سيرة الإمام (ع) الكثير من مثل هذه المواقف التي تعبر عن خلق الهي كريم أطرت به شخصية علي (ع)، على إننا لو غرضنا الطرف عن كافة مواقف الحلم التي اصطبغت بها حياة علي (ع) بالنسبة إلى المسيئين له أو أعدائه لكان في موقف الإمام (ع) من قاتله ابن ملجم المرادي أعظم شاهد على تمتع الإمام (ع) بنمط من الأخلاق السامية لم يتمتع بها سوى الأنبياء والمقربين من البشر، فهل أنباك التاريخ عن إنسان عامل عدوه بنفس الروح التي عامل بها

(١) المناقب ج ١ ص ٣٧٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٠ وبحار الأنوار ج ٤١ ص ٤٩.

علي (ع) قاتله، لقد شدد الإمام (ع) على أهل بيته أن يطعموا قاتله ويسقوه ويحسنوا إليه فعن الإمام الباقر (ع) وهو بصدد ذكر إحدى وصايا الإمام أمير المؤمنين (ع) في آخر حياته يقول:

أن علي بن أبي طالب عليه السلام.. قال للحسن والحسين (ع): «احبسوا هذا الأسير- يعني ابن ملجم المرادي - وأطعموه وأسقوه، وأحسنوا إسهاره فإن عشت فأنا أولى بما صنع في، إن شئت استقدت وإنشئت صالحت، وإن مت فذلك إليكم، فإن بدا لكم أن تقتلوه فلا تمثلوا به»^(١).

رابعاً- التورع عن البغي:

والتورع عن البغي أصل من أصول الدين، نفسية الإمام (ع) وخلق من أخلاقه الكريمة، وهو مظهر من مظاهر التقوى التي يمتاز بها، فهو يتحاشى البغي حتى على أشد الناس خصومة له وللحق الذي هو عليه، وحتى إذا بغى عليه يبقى مصراً على التزام خطه في النأي عما له صلة بأي لون من ألوان البغي..

ومن أجل ذلك كان الإمام (ع) داعية السلم الأكبر، مع كثرة الشغب والفتن التي أثارها بعض الناس في طريق مسيرته الإصلاحية:

- بذل كل ما في وسعه أن يجنب الأمة المسلمة سفك الدماء وتمزق الصف، حين ألح على الزبير وطلحة أن يعدلوا عن موقفهم، سواء من خلال المراسلة، أم الوفود أم اللقاءات الشخصية المباشرة مع الزبير وطلحة^(٢).

ولقد بلغ الأمر بالإمام (ع) حين التقى الجيشان في البصرة

(١) بحار الأنوار ج ٤١ ص ٢٠٦ باب ١٢٧.

(٢) تذكرة الخواص ص ٧٦.

أن يدعو الزبير فيخرج الإمام (ع) بلا سلاح، ويعانقه طويلاً وربما بكى علي (ع) في ذلك الموقف، ثم عاتب الزبير على خروجه لقتاله، وذكره بعلائق المودة القديمة بينهما كما ذكره بقول رسول الله (ص) فيهما: «أنشدك الله يا زبير أما تذكر، قال لك رسول الله (ص) يبا زبير أتحب علياً، فقلت وما يمنعني من حبه، وهو ابن خالي؟ فقال (ص): أما أنك ستخرج عليه وأنت له ظالم.

فقال الزبير: اللهم بلى، قد كان ذلك^(١).

وحين أفلت الزمام وأصر الناكثون على إشعار نار الحرب بقي الإمام (ع) عند موقفه الرافض للبغي والعدوان، فلنصغ إليه وهو يخاطب جنوده: «أيها الناس أنشدكم الله أن لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا سبياً ولا تأخذوا سلاحاً، ولا متاعاً»^(٢).

وحتى بعد انتهاء المعركة بقي الإمام (ع) عند موقفه النائي عن العدوان فأعلن العفو العام عن جميع المشتركين في حربه: القيادات والقواعد على حد سواء^(٣).

وذاك الخلق العلوي تجلى في حوادث صفين من بدايتها إلى نهايتها: يقطع البغاة عن طريق الوصول إلى الماء وهو في حيويته لجيش مقاتل كبير فلا يبادر لاستعمال العنف، بل يرسل الوفود، ويبذل المحاولات لتغيير الموقف بالتي هي أحسن.. لكي لا تراق للمسلمين

(١) الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٦١ وفي تذكرة الخواص رواية مشابهة

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ١٧٦ مثلها.

(٢) الفصول المهمة ص ٦٢ وتذكرة الخواص أيضاً.

(٣) راجع القسم الثاني من هذه الدراسة.

دماء.. ولكن البغي الأموي الحاقد الذي يجسده قولهم «ولا قطرة حتى تموت ظمأ»^(١) حمله على إصدار أوامره لقواته بالتحرك لكسر الحصار وهكذا كان.. وحين أمتلك الماء أباحه لجيش عدوه منذ الساعة الأولى من سيطرة قواته عليه.

- ومع أصحاب النهروان بذل الإمام (ع) كل مسعى لأجل إبعاد الناس عن القتال، ولكن إصرارهم على قتال الإمام (ع) حال دون بلوغهم الصراط المستقيم فعاشوا في الأرض فساداً وقتلوا نفوساً بريئة، وأثاروا البلبلة في البلاد مما اضطر علياً (ع) إلى قتالهم، ولكن بعد محاولات عديدة أيضاً لجمع الصف، ودعوات مستمرة لإقرار السلم وإلقاء السيف^(٢).

وفي وصايا الإمام (ع) لجيوشه وجباة المال والولاء مؤشرات أخرى على التزام علي (ع) لمنهاج اللابغي واللاعديان على أحد كائناً من كان ما ذكرنا منه طرفاً في الصفحات الماضية في هذا البحث.

- وما أعظم علياً أمير المؤمنين (ع) وهو ينص في عهده لمالك الأشتر على وجوب التزام الرفق بالناس، وعدم التعامل بأي لون من ألوان البغي والتعالي على الناس، وغمط حقوقهم المفروضة في شرع الله العظيم «.. وأشعر قلبك الرحمة للرعية، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق.. فأعطيهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه.

أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك،

(١) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٤٥ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٣.

(٢) راجع القسم الثاني من هذا الكتاب.

ومن لك هوى فيه من رعبتك، فإنك إن لا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله دحض حجته، وكان الله حرباً حتى ينزع، ويتوب»^(١).

ولم يكن منهج علي (ع) هذا خاصاً بأهل مصر، وإنما هو منهجه الشامل لكل البلاد التي رفرت راية دولته الكريمة علياً.

- ولقد كان الإمام (ع) يعهد إلى ولاته في الأمصار مثل الذي عهده إلى مالك (رض) في وجوب إشاعة العدل، والرفق بالناس، وعدم البغي عليهم بحال من الأحوال أو معاملتهم بأي لون من ألوان الظلم..

ولقد طرحنا بعضاً من وصاياه للولاة فيما مضى من حديث.

خامساً - شواهد من صبر الإمام:

وقوة الإرادة والروح العالية في مواجهة مصاعب الحياة ركن أساسي في شخصية علي (ع) وقد لا نغالي إذا اعتبرناها قاعدة للكثير من مواقف الإمام (ع) في حياته العملية، مما ذكرناه أو مما لم نذكره، فشدّة تعلقه بالله وكثرة عبادته، وتورعه عن البغي وزهده في الحياة الدنيا، وصفحه عمن يسيء إليه وغيرها مؤشرات ضخمة على تسليح الإمام (ع) بصبر لا يعرف الهزيمة ولا النكوص عن القصد بشكل جعل الإمام (ع) وكأنه الصبر صار إنساناً.

ومع أن تلك المواقف والممارسات تمنح الدليل تلو الدليل على حجم الصبر الذي يتمتع به الإمام (ع) فإنه من المناسب أن نذكر إلى جانب ذلك مواقف وأحداث جرت في حياة علي (ع) وقد أثر الصبر،

(١) عهد الإمام (ع) إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر نهج البلاغة رقم ٥٣ ص ٤٢٦.

ورباطة الجأش التي امتاز بها الإمام (ع) في طرحها في دنيا الواقع . .

- فحين أجمعت قريش في دار الندوة على قتل المصطفى (ص) من خلال عملية جماعية يتولاها من كل قبيلة شاب قوي ليذهب دم الرسول (ص) هدرأ بزعمهم دون أن تستطيع بنو هاشم - عشيرة النبي - أن تطالب بدمه . .

حين أجمع رؤوس الشرك على تدبير ذلك الجرم، أنبأ الله تعالى رسوله (ص) بأمرهم .:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .

(الأنفال / ٣٠)

وأمره تعالى بوجوب الهجرة إلى دار الإسلام «يثرب» فخرج (ص) مهاجراً بعد أن ترك علياً (ع) في فراشه ملتجئاً ببردته ففضى الإمام (ع) ليلته في فراش رسول الله (ص) دون أن يكثرث بما حوله من مكر مبيت. فلقد كان محتملاً أن ينقض أولئك الأوغاد على الإمام (ع) بسيوفهم دون رحمة، مدفوعين بالحقن الجاهلي الأسود البليد، دونما أقل اكتراث، ظناً منهم أنه الرسول (ص)، والإمام (ع) كان يتوقع ذلك منهم، ولكن إرادة علي ورباطة جأشه المعروفة المستمدة من الثقة المطلقة بالله والإيمان الكامل بقدره وقضائه تعالى وقوة صبر الإمام (ع) على مواجهة المصاعب والأحداث قد حملته على أن يسخر بما يبيتون، حتى إذا طلع هجم القوم على حجرة الرسول (ص) وعلي (ع) فيها وهم يظنون أنه رسول الله (ص) . . فواجههم الإمام (ع) بصلافة إرادته المعهودة:

ما شأنكم؟ قالوا:

أين محمد؟ قال:

أجعلتموني عليه رقيباً؟ أستم قلتم نخرجه من بلادنا، فقد خرج عنكم!!

هكذا يخاطب الإمام (ع) المتأمرين بمنتهى الصبر والأبساء والصرامة ساخراً بأولئك الأوباش.

إنه موقف شجاع تتصاغر أمامه إرادة الأبطال من الرجال!

. وبذلك الإرادة بقي الإمام (ع) في مكة بعد هجرة رسول الله (ص) يواجه مسؤولياته في تنفيذ وصايا الرسول (ص) وأداء كافة المهمات المناطة به.

- وفي يوم هجرته خرج الإمام (ع) جهاراً يقود قافلة المهاجرات من أهل البيت: فاطمة الزهراء، وفاطمة بنت أسد وسواهما، فجرت محاولة من المشركين للحيلولة دون هجرته، ولكن إرادة علي (ع) وقوة تحمله للعقبات أفشلت المحاولة، فلم يعأ بالفرسان الثمانية الذين أرسلوا لاعتراض سبيله، فواجههم بسيفه، وأهوى به على قائدهم بضربة قاضية، تحول الرجل بعدها إلى جثة هامدة ينور بدمه في تلك الفلاة من الأرض، ففر الباقون مخلفين قائدهم في الميدان^(١).

- وفي دار الهجرة واجه الإمام (ع) مسؤولياته العظيمة كجندي من جنود الرسالة في الرعيل الأول، فأبدى (ع) من قسرة الإرادة ومضاء العزيمة والقدرة على مواجهة المصاعب ما يعد مفخرة للإنسان الإسلام بامتداد وجوده التاريخي، فالإمام (ع) عبر المساركة الهجومية

(١) الإمام علي رجل الإسلام المخلد - عبد المجيد لطفي ص ٥٣ راجع الشبعة ج ٣ ق ١ ص ١٥٦ - ص ١٥٧.

والدفاعية - التي خاضها رسول الله (ص) من أجل نشر الرسالة الإلهية أو حماية وجودها العملي في حياة الناس - كان قطب رحاها الخائض المقدام لغمراتها الذي لا تأخذه في الله لومة لائم من أجل إخماد طغيان الشرك والمشركين وكافة أعداء الرسالة المتربصين، فما من حرب تسعر وما من معركة تدور رحاها إلا دعي علي (ع) لإخماد فتنتها وتنكيس رايات الجاهلية فيها: في بدر، وأحد والأحزاب، وحنين، وخيبر... و..

وفي كثير من المواقف يسود الهلع في معسكر المسلمين، ويستبد الوهن والنكوص عن مواجهة العدو، فيعيد سيف علي (ع) الثقة للنفوس ويجدد في معسكر الإيمان روح القدرة على المواجهة وصد العدوان..

الأمر الذي يكشف عما يتمتع به الإمام (ع) من نفس كبيرة تعلو على كل وهن، وتسخر بكل ضعف، وترتفع فوق كل ذلة وهوان.. إنها قوة الإرادة... ومضاء العزيمة وشدة الصبر على المكاره مقرونة باليقين العميق بالله تعالى، والإستمداد منه والتوكل عليه دون سواه.

وقد تولى الإمام (ع) الخلافة في ظروف صعبة دقيقة على مضض، وبعد محاولات عديدة من الرفض لها من قبله^(١)، وما أن عقدت له البيعة حتى نكث قوم وقسط آخرون، ومرق غيرهم، كل ذلك من أجل أن يحال بين الإمام (ع) وبين استئناف المسيرة الإسلامية التي بدأها رسول الله (ص).

ولقد تحمل أمير المؤمنين (ع) ما تحمل من الآلام والمشقات في سبيل إخماد الفتنة السوداء التي أثارها أصحاب المنافع الشخصية

(١) يراجع القسم الثاني من هذا الكتاب.

وأصحاب المصلحة من سياسة الانحراف، في طريق مسيرته الإصلاحية، فقابل كل ذلك بالصبر الجميل، وبالتسليم لقضاء الله تعالى، حتى رحل إلى ربه الأعلى شهيداً مثقلاً بالمتاعب والآلام.

- وإذا تركنا تلك الأمور جانباً وألقينا نظرة على جوانب أخرى من حياة الإمام (ع) لنحدد مواقع الصبر والإرادة الصلبة لما صح أن تفوتنا مواقف الصبر التي وقفها أمير المؤمنين (ع) حين يفارق أحبته ورفاق الدرب، وأولهم رسول الله (ص) الذي فاضت نفسه الشريفة في حجر الإمام (ع)^(١). وواراه الثرى بنفسه، وعاش مأساة فراقه بكل أبعادها، وها هو يخاطب رسول الله (ص) وهو يلي غسله وتجهيزه بكلمات حزينة تدمي القلب وتزرع الأسى: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء. خصصت حتى صرت مسلياً عن سواك؟ وعممت حتى صار الناس فيك سواء. ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، ولا نفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداء ممطلاً، والكمد محالفاً، وقللاً بك، ولكنه ما لا يملك رده، ولا يستطيع دفعه! بأبي أنت وأمي. أذكرنا عند ربك، واجعلنا من بالك»^(٢).

وإذا أعدنا إلى الأذهان ما يحظى به رسول الله (ص) من حب

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٣٠٠ ومناقب الخوارزمي عن عائشة.

(٢) نهج البلاغة من كلام له (ع) رقم ٢٣٥.

أنفلنا: أفيننا.

ماء الشؤون: منابع الدمع.

الداء ممطلاً: ممطلاً بالشفاء.

المد محالفاً: الحزن ملازماً.

قلا: مخالفة الحزن ومماثلة الشفاء قليلاً لك.

وتعظيم في نفس أمير المؤمنين (ع) لأدركنا حجم الأسى الذي صب على الإمام (ع) بفقده (ص)، فعلي (ع) قد حظي بتربية الرسول (ص) ورعايته وأعداده ومصاحبته منذ الصبا حتى فارق رسول الله الدنيا.

ولقد كانت تلك التربية وتلك الأخوة بينهما مليئة بضروب الود والحنان والوفاء والإخلاص مما ليس له نظير^(١).

على أن الإمام (ع) التزم جانب الصبر راضياً بقضاء الله المحتوم في رسول الله (ص).

- وفي خضم الأحداث المريرة التي عاشها أمير المؤمنين (ع) في هذه الفترة، أملت بالزهراء سيدة نساء العالمين العلة التي توفيت على أثرها فلحقت بالراحل العظيم أبيها حيث كان الإمام (ع) طوال فترة المرض الذي عانت منه فاطمة (ع) يعيش ما تعاني بملء كيانه، فهي وديعة رسول الله (ص) ومدرسة الإمامة التي خرجت قادة الأمة الهداة (ع) وهي الصابرة المحتسبة وهي بعد ذلك زوجة الوفة التي عاشت معه آماله والأمة طوال حياتها معها.

لقد رأى الإمام (ع) زهراء الإسلام، بعد رسول الله (ص): وهي تعيش مرارة الأسى ثم وهي تستسلم لفراش المرض فيشحب لونها، وتتردى أوضاعها الصحية يوماً بعد يوم، ثم يراها وهي تفارق الدنيا، فيباشر تغسيلها وتجهيزها ودفنها عليها السلام، ثم يقف على شفير قبرها مودعها بعبارات تذيب القلوب الحديدية «السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك! قل يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي، إلا أن في التأسى لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك، موضع تعز، فلقد وسدتك

(١) راجع القسم الأول من هذا الكتاب.

في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك «إنا لله وإنا إليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة! إما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخل منك الذكر، والسلام عليكم سلام مودع، ولا قال، ولا سثم، فإن انصرف، فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين^(١).

فالتتيجة أن الإمام (ع) استسلم لقضاء الله تعالى واستعان على الأسى بجميل الصبر.

وكما صبر الإمام (ع) لفقد رسول الله (ص) والصديقة الزهراء (ع)، تجمل بالصبر كذلك لفقد أخوة له في الله، انقطعوا إليه في الوفاء وبذلوا أرواحهم وكل ما يملكون في سبيل رسالة الله تعالى، وقد تصدوا لهدم الباطل، وواجهوا الانحراف، فاستشهدوا في ساحات الجهاد كعمار بن ياسر ومالك بن النيهان، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصاري ومالك الأشتر، ومحمد بن أبي بكر وسواهم.

وها هو الإمام (ع) يذكرهم قبل اغتياله بأيام في خطبة له جاء فيها (.. أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار، وأين ابن النيهان، وأين ذو الشهادتين وأين نظراؤهم من

(١) نهج البلاغة رقم النص ٢٠١.

التأسي: الإعتبار. هضم: ظلم.

الفادح: المثقل. إحقاء السؤال: الإستقصاء فيه.

التعزي: التصبر. القالي: المبغض.

ملحودة القبر: الجهة المشقوقة. السثم: الضجر.

مسهد: اشتد منه الأرق.

إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة.

«ثم أطلال البكاء» وقال:

أوه على إخواني الذين تلو القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض
فأقاموه، أحيو السنة، وأماتوا البدعة، دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا
بالقائد فاتبعوه..»^(١).

ومن شواهد صبر الإمام (ع) كذلك رفضه للدنيا ولذاتها وتحمله
لأذى الجوع، والتقشف وزهده بالمال حتى يبلغ به الحال أحياناً أن
يشد حجر المجاعة^(٢)، على بطنه، ولقد رأيت في حديثنا عن زهده
وعبدالله^(٣) ما يغنيك عن تعداد شواهد أخرى من قوة تحمله وإرادته في
مواجهة المشقات وعقبات الحياة.

وهكذا عاش الإمام (ع) حياة مليئة بالكدح والآلام، زاهرة
بالرزايا، حافلة بالمحن، غير أنه واجهها جميعاً بقوة صبره، وعظيم
إرادته التي لا تقهر.

(١) نهج البلاغة أو آخر خطبة رقم ١٨٢.

أبرد برؤوسهم: أرسلت رؤوسهم بالبريد إلى الطغاة للتشفي منهم. أوه: كلمة
توجع.

(٢) شرح النهج ج ١، ص ٢٢.

(٣) في القسم الثاني والثالث من هذا الكتاب.

فجئ حقل المخرقة

- * صور من فكر الامام
- * مصنفات الامام
- * طرف في مواعظ الامام
- * قيس من حكم الامام

إن محاولة الحديث عن دنيا المعرفة عند علي (ع) مهما أعطيت من التوفيق يستحيل عليها أن تحدد الفكر العلوي العظيم، وتحيط بأبعاد المعرفة التي طرحها الإمام (ع) في ساحة الفكر الإنساني، وحسبك أن كل مدرسة فكرية ظهرت في دنيا المسلمين، كل منها تدعي انتماءها فكرياً للإمام (ع) حتى وإن كانت مخالفة للواقع والحق، وكأن قولها بالاستمداد من علي (ع) يعطيها صفة الشرعية وحق الحياة، فالأشاعرة نسبوا أنفسهم له، والمعتزلة أدعوا الانتماء إليه، وزعمت مدرسة الرأي في الفقه انتماءها إليه، وذهب المتصوفة إلى أن أمامهم أمير المؤمنين فيما ذهبوا، وسوى هؤلاء كثير^(١).

هذا فضلاً عن حملة مبادئه من الذين التزموا مذهب أهل البيت (ع) الثقل الثاني بعد القرآن الكريم الذي ألزمت الشريعة بالتمسك بهما وسلوك دربهما على لسان رسول الله (ص) «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»^(٢).

فادعاء جميع المدارس الفكرية والفقهية انتماءها للإمام (ع) وانتهاؤها من بحر علمه مؤثر كبير على عظمة الإمام (ع) وعلو شأنه في دنيا الفكر الإسلامي. الأمر الذي لم يكن لأحد من المسلمين بعد رسول الله (ص) طوال التاريخ الإسلامي.

فعلي (ع) قد تنازعت كل الحركات الفكرية والفقهية التي ولدت

(١) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٧ وما بعدها ط ١، ١٩٥٩ ط دار إحياء الكتب العربية.

(٢) روى هذا الحديث باختلاف يسير في اللفظ: مسلم في الصحيح، والحاكم في مستدرک الصحيحين وأحمد بن حنبل في: مسند، والمتقي في كنز العمال، وغيرهم.

في تاريخ المسلمين، بل قال بالإنساب إليه أصحاب النشاطات الفكرية والثقافية والعلمية من نحويين وأهل القراءات وعلماء التفسير وأهل الحديث والفقه وسواهم على أن الإنساب لعلّي (ع) في الحقل المعرفي أو ادعاء الإنساب إليه لم يأت عفواً أبداً، وإنما هو شاهد قوي على أن علياً (ع) لم يترك حقلاً من حقول المعرفة الصحيحة إلا ووضع أسسه وحدد معالمه وترك الباب مفتوحاً لرواد المعرفة أن ينتهلو منه.

ولم يكن العطاء الفكري العظيم الذي أسداه الإمام (ع) للإنسان إلا حصيلة طبيعية للأعداد الخاص الذي توفر للإمام (ع) من لدن رسول الله (ص) منذ طفولة الإمام (ع) حتى آخر ساعة من حياة الرسول (ص). الأمر الذي تسالم المؤرخون على حقيقة وقوعه.

ولقد أشار الإمام (ع) ذاته إلى ذلك الأعداد الذي وفره له رسول الله (ص) وكشف عن أهميته وأبعاده في حياة الإمام (ع) بقوله «... وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقربة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنّني في فراشه: ويمسني جسده، ويشمني عرقه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمّني، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل... ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أيمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه، ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة»^(١).

(١) نهج البلاغة الخطبة القاصعة. رقم ١٩٢.

ولاستمرارية ذلك الأعداد الخاص لعلي (ع) يشير أبو سعيد
الخدري (رض) بقوله «كانت لعلي من رسول الله (ص) دخلة لم تكن
لأحد من الناس»^(١).

وعن ابن عباس «رض» عن علي (ع) قال :
«كان لي من النبي (ص) مدخلان : مدخل بالليل ومدخل
بالنهار»^(٢).

ولقد كان ذلك الأعداد الرسولي منصباً على جميع جوانب
شخصية الإمام (ع) من أجل تأهيله فكرياً ونفسياً لاحتلال موقع
المرجعية الفكرية والسياسية للأمة الإسلامية بعد غياب رسول الله (ص)
عن مسرح الحياة ..

وحيث أن حديثنا هذا يهدف إلى دراسة العطاء الفكري الشر
الذي طرحه الإمام (ع) في الساحة الإنسانية فلا بد من أن نشير إلى أن
رسول الله (ص) حين أكمل بناء الجوانب الفكري من شخصية
الإمام (ع) وأهله لخلافته في هذا المضممار، أخذ (ص) يبلغ الأمة
بحقيقة ما وصل إليه الإمام (ع) من مستوى عظيم في ميدان المعرفة :
قال (ص) :

- «إنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت من باب»^(٣).

(١) أنساب الأشراف ج ٢ ص ٩٨ - البلاذري .

(٢) خصائص الإمام علي بن أبي طالب للسنائي ص ٤٩ .

(٣) أخرجه الترمذي في صحيحه وأحمد بن حنبل والحاكم في المستدرک والحافظ أبو
محمد السمرقندي في بحر الأسانيد وابن جرير في تهذيب الآثار والأربلي في كشف
الغمة نقلاً عن فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي للحافظ
أحمد بن محمد الصديق الفماري ط ٢ ، ١٩٩٦ .

- «علي باب علمي ومبين لأمتي ما أرسلت به»^(١).

وعن ابن مسعود قال: كنت عند النبي (ص) فسئل عن علم علي (ع)؟
فقال:

- «قسمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً، وهو أعلم بالعشر الباقي»^(٢).

وهناك أحاديث شريفة بهذا الشأن لا تكاد تحصى كثرة، وهي تهدف جميعاً إلى بيان المكانة التي يحتلها الإمام (ع) في الجانب المعرفية، وتدعو الأمة صراحة إلى وجوب أخذ معارف التشريع الإلهي عن طريقه^(٣)، فمنه تستمد الهدى، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى بعد رسول الله (ص).

ولقد أدرك الكثير من معاصري الإمام (ع) ما يحظى به الإمام (ع) من علو شأقه في مجالات المعرفة بشتى حقولها وجوانبها، وما يتبوؤه من مقام رفيع في ركب الإسلام الخالد:

فها هو ابن عباس (رض) يقول:

- أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأنه لأعلمهم بالعشر الباقي^(٤).

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء والديلمي في فردوس الأخبار وغيرهما نقلاً عن مقام أمير المؤمنين ط الأعلمي ص ٧.

(٢) أخرجه الخوارزمي وابن المغازلي الشافعي والمناقب ج ٢ ص ٣٠.

(٣) راجع مناقب آل أبي طالب ج ١ فصل في المسابقة بالعلم، والبحار ج ٤١ باب ٩٣ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها.

(٤). بحار الأنوار ج ٤٠ باب ٩٣ عن النقاش في تفسيره، ومناقب آل أبي طالب ج ١ فصل المسابقة في العلم.

وعطاء بن أبي رباح يقول - حين سئل هل تعلم أحداً بعد،
رسول الله (ص) أعلم من علي ..
- لا والله ما أعلمه .

وعمر بن الخطاب يقول:

- العلم ستة أسداس، لعلي من ذلك خمسة أسداس وللناس
سدس، ولقد شاركنا في السدس حتى لهو أعلم به منا^(١).

ولكم كان الخلفاء الذين سبقوه تاريخياً يرجعون إليه في مسائل
القضاء والحكم والإدارة، حتى أن عمر ابن الخطاب كان يردد «لا
أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن» أو يقول «أعوذ بالله من معضلة
لا علي لها»^(٢).

وعائشة تقول:

- علي أعلم الناس بالسنة^(٣).

وغير هؤلاء كثير ..

على أن أمير المؤمنين (ع) قد أفصح مراراً وفي مناسبات شتى
عما يحمل من علم شامل غزير.

فتراه يخاطب أصحابه بأن صدره يحمل علماً عظيماً تلقاه من
رسول الله (ص) ولو وجد له حملة أمناء يتصدون لحمله وتبليغه لأودع
بعض علمه لديهم:

- «إن في صدري هذا لعلماً جما، علمنيه رسول الله (ص) ولو

(١) و (٢) راجع فصل في عهد الخلفاء في الحلقة الأولى من دراستنا عن أمير
المؤمنين (ع).

(٣) البحار ج ٤٠ باب ٩٣ عن كشف الغمة.

أجد له حفظة يرعونه حق ورعايته ويروونه عني كما يسمعونني مني ، إذا لأودعتهم بعضه . . »^(١).

ثم يكشف في مناسبة أخرى عن حجم ذلك العلم الذي يحمل ويبين أبعاده ومساحته :

فعن ابن نباتة قال :

- لما بويح أمير المؤمنين (ع) بالخلافة خرج إلى المسجد معتماً بعمامة رسول الله (ص) لابساً بردته فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ، وأذدر، ثم جلس متمكناً، وشبك بين أصابعه، ووضعها أسفل سترته ثم قال :

- يا معشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فإن عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثبت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم، حتى ينهي كل كتاب من هذه الكتب ويقول: يا رب إن علياً قضى بقضائك، والله إني لأعلم بالقرآن وتأويله من كل مدع علمه، . . ثم قال . . . سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتهموني عن آية آية لأخبرتكم بوقت نزولها، وفيما نزلت، وأنبأتكم بناسخها ومنسوخها، وخاصها من عامها، ومحكمها من متشابها، ومكيها من مدنيها والله ما من فئة تضل أو تهدي إلا وأنا أعرف قائدها وسائقها وناعقها^(٢).

«سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في

(١) المرجع السابق باب ٩٣ نقلاً عن الخصال.

(٢) البحار ج ٤٠ باب ٩٣ ويشبهه في الإرشاد للشيخ المفيد ص ١٩١.

سهل أم في جبل»^(١).

ولو قدر أن علياً (ع) لم يتسن له أن يساهم بما ساهم به من علم جم - الأمر الذي سنتناول خطوطه العريضة في هذا الفصل - في المجالات الفكرية فإن نداءاته الملحة في مناسبة وأخرى: سلوني قبل أن تفقدوني: آية جلية على قدراته الفائقة في حقول المعرفة بشتى ضروبها وامتداداتها.

ولو قدر كذلك أن الرسول (ص) لم يكشف عما لعلي (ع) من سابقة في العلم وعلو شأقه في المعرفة، لكان إصرار علي (ع) على دعوة الناس بتلقي العلوم منه شاهداً قوياً لا يرد على ما له (ع) من علم غزير، فإن ثقته العالية بنفسه في مضمار العلم هي التي تدفعه لتكرار ذلك النداء الفريد، الذي ما حدثنا التاريخ أن رجلاً قدم عليه قبل علي (ع) خوف الفضيحة والنكوص عن الإجابة!

ولقد تنبه الكثير من أصحاب العقول إلى ما ينطوي عليه ذلك النداء العلوي: سلوني، من أهمية بالغة، فقد قال سعيد ابن المسيب: ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب»^(٢). وعن ابن شبرمة يقول: «ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر سلوني إلا علي بن أبي طالب»^(٣).

فالنداء المذكور بكثرة إلحاحه وحرارته يحمل بين ثناياه ما حواه الإمام (ع) من علم شمولي يمد الإنسان بالغنى والخير والهدى والسداد.

(١) أعيان الشيعة ج ٣ ق ١ ص ٦٣ عن الاستيعاب ومثلها في الإصابة والإتقان وحلية الأولياء وفي صحيح مسلم ج ٦.
(٢) نفس المصدر عن غرر الحكم للأمدى.
(٣) نفس المصدر عن نهج البلاغة.

من أبعاد المعرفة

بمقدورنا بعد إيراد التوطئة المتعلقة بالحقل المعرفي عند أمير المؤمنين أن نقول أن تصوراً قد تكامل لدينا حول عمق المعرفة وشمولها عند الإمام (ع) فهو وريث رسول الله (ص) والمبين للأمة ما بعث به، ومرجعها في كل تساؤلاتها الفكرية الملحة كل ذلك حصيلة لإعداد مسبق من لدن رسول الله (ص) أشرنا لبعض مصاديقه فيما مضى من حديث.

بقي أن نشير في هذا الفصل إلى أبعاد المعرفة التي أسداها الإمام (ع) للإنسان: المسلم منه وغير المسلم.

ففكر علي (ع) وإن كان رسالياً هادفاً إلى خدمة الرسالة الإلهية وحملتها وعاملاً على دفع عجلة مسيرة الإسلام التاريخية إلى الإمام، فإنه يبقى منهلاً عذباً لتصيب منه الإنسانية بشتى نحلها واتجاهاتها الفكرية، وهو كفيل بهدايتها إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

وقبل أن نطرح الخطوط العامة للجانب المعرفي عند الإمام (ع) جدير بنا أن نشير إلى أنه (ع) بالرغم مما طرحه في دنيا الفكر الإنساني من أبواب المعرفة المتعددة فإننا نظل عند قناعتنا من أن

الإمام (ع) لم تسعفه الظروف الإجتماعية والسياسية على حد سواء أن يسدي للإنسان بالكثير مما عنده من معرفة.

فإذا أهملنا أثر الظروف السياسية التي ألت بالإمام (ع) ومنعته من أداء مهماته على الشكل المرجو من أجل مصلحة الرسالة والإنسان، - فإن الظروف الإجتماعية لا تقل خطراً عن تلك الظروف، فالمجتمع الذي عايشه الإمام (ع) لم يكن في مستواه من ناحية الوعي قادراً على إدراك الإمام وأهميته ودوره الرسالي الخطير في حياة الناس، ولعل أبلغ شاهد على ذلك ما كان يواجهه الإمام (ع) من تساؤلات فجأة واعتراضات تافهة حين يدعو قومه للإفادة مما يحمل من علم جم تلقاه من رسول الله (ص).

ونذكر بهذا الصدد بعض تلك المواقف التي تقطر سخفاً وبلادة: - فقد خاطب الناس مرة بقوله: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة أو تهدي مائة إلا نبأكم بناعقها، وسائقها، ولو شئت لأخبرت كل واحد منكم بمخرجه ومدخله وجميع شأنه:

فقام إليه سنان بن أنس النخعي قائلاً:

أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر^(١)!!

- وبينما كان الإمام (ع) يوماً يحدث قومه عن بعض حوادث المستقبل كبر على أعشى بأهله - عامر بن الحارث - ما تحدث به الإمام (ع) فقال له:

(١) شرح النهج ج ٢ ص ٢٨٦ - ونفس الرواية في البحار / ٤٠ باب ٩٣ ص ١٩٢ ولكنه يروي أن الرجل كان تميم بن أسامة التميمي.

يا أمير المؤمنين ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة^(١) .
هذه بعض المواقف التي اتخذها البعض من الناس الذين
عاصروا الإمام (ع) فأضاعوا أئمن فرصة مرت بالأمة بعد
رسول الله (ص) .

وبالرغم من ذلك كله فإننا ينبغي ألا نغفل ما كان ينطوي
المجتمع عليه من طلاب المعرفة من أجل الوصول إلى الهدى
والخير .

وكانت تلك الفئة واعية لحقيقة الإمام (ع) مؤمنة بقدرته الفائقة
على طرح شتى أنواع الفكر الإسلامي في العقائد والتشريع وفي
مختلف أبواب المعرفة الضرورية لمسيرة الإنسانية .

وقد قابل أمير المؤمنين (ع) أولي الأبواب بنفس الثقة التي
أولوها له ، فخصهم بالكثير من ألوان الأعداد والتوجيه والتثقيف ليواصل
المسيرة التي بدأها رسول الله (ص) والتي خط الإمامة عبر التاريخ
الإسلامي ابتداء بعلي (ع) وانتهاء بأبي القاسم الإمام المهدي (ع) .
وقد بلغ بالإمام (ع) أن يكشف الكثير من أسرار المعرفة لأولئك
المتقين الأفذاذ من الرجال^(٢) .

وقد تعاهد الإمام (ع) أمر أعداد الحقيقين للرسالة
الإلهية من بدأ الرسول (ص) عملية أعدادهم أو غيرهم . .

على أن الذي توفر للإمام (ع) طرحه من آراء ومبادئ وحكم
ومفاهيم في ساحة الفكر الإنساني كفيل بعضه دون جميعه لإبراز عظمة
الإمام (ع) وقدراته العلمية الفائقة .

وها نحن أولاً ، نطرح صوراً من المعرفة عند الإمام (ع) :

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٨٦ وما بعدها .

طور من الفكر العقائدي

للإمام (ع) باع طويل في طرح الصيغ المحددة للعقائد الإسلامية من خلال ما طرحه من خطب ورسائل ومواعظ ومناقشات.

والباحث فيما خلفه الإمام العظيم (ع) من ثروة فكرية يتجلى له بعمق أن أمير المؤمنين (ع) قد أعطى للعقيدة الإسلامية ركائزها الأساسية على وجه الخصوص الكثير من الإهتمام والعناية، وأغلق الباب بوجه أي شذوذ وانحراف وعدول عن مضامينها الحقيقية بأسلوب واضح وجلي لا يمكن صرفه أو تأويله لأي معنى آخر غير ما أراه الإمام (ع). فالله تعالى وأسمائه الحسنی وصفاته ذاته وصفات أفعاله، والرسالة والنبوة والوحي، والملائكة والإمامة والقضاء والقدر، والبعث والنشور وفلسفة الدنيا والجنة والحساب وسواها من أسس العقيدة الإسلامية قد طرحها الإمام (ع) في صيغ محددة نابضة بقوة الحجة والبرهان والوضوح.

ولو قدر للأمة المسلمة بجميع فرقها أن تنهل من المنهل العذب الرقراق الذي فجره علي (ع) في دنيا الفكر الإسلامي، لاجتمعت الكلمة وتوحد الصف والهدف، وما شهدت دنيا المسلمين أي لون من

ألوان الشطحات والانحرافات المضلة التي جنح إليها رهط من أتباع المدارس الفكرية عند المسلمين.

ويقدر ما تسمح به محاولتنا لدراسة الخطوط العامة لما خلفه لنا الإمام أمير المؤمنين (ع) من ثروة فكرية سنعرض نماذج من الفكر العقائدي الذي زين الإمام (ع) بها صفحات الفكر الإنساني بشكل عام:

وحدانية الله عز وجل:

«الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه^(١).

أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه، فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن قال «فيم» فقد ضمنه، ومن قال «علام؟» فقد أخلى منه.

كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم.

(١) فطر الخلائق: ابتدعها على غير مثال سابق.

(٢) وتد: شبت.

(٣) الميدان: التحرك بالتمايل.

مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه متوحد إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده، أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطراب فيها، أحوال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها...»^(١).

«الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، ولا تقع الأوهام له على صفة، ولا تقعد القلوب منه على كيفية، ولا تناله التجزئة والتبعيض، ولا تحيط به الأبصار والقلوب...»^(٢).

«لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركا، ولم يلد فيكون موروثا هالكاً، ولم يتقدمه وقت ولا زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، بل

(١) نهج البلاغة رقم الخطبة ١.

لاعن حدث: لاعن إيجاد موجد.

المزايلة: المفارقة والاختلاف.

الروية: التفكير.

أجال: ردد أو أدار.

همامة: اهتمام الأمر وانشغال بال.

لأم: قرن.

غرز الغرائز: أودع فيها الطباع.

قرائن: جمع قرونة وهي النفس.

الإحناء: الجوانب.

لا تقعد القلوب منه على كيفية: أي ليست له كيفية فتحكم بها.

(١) نفس المصدر رقم ٨٥.

ظهر للعقول بما أَرانا من علامات التدبير المتقن، والقضاء المبرم»^(١).

«الحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسي أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو أنس، لا يدرك بوهم، ولا يقدر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا ينظر بعين، ولا يحد بأين، ولا يوصف بالأزواج ولا يخلق بعلاج، ولا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس»^(٢).

هكذا حدد أمير المؤمنين (ع) مفهوم وحدانية الله سبحانه وتعالى، وهكذا عرف علي (ع) الله رب العالمين، ووصفه كما أراد الله تعالى أن يوصف به، فقد نزّهه عن التشبيه والتجسيم والمكان والتجزئة والتبعيض وكل نقص، وأخرجه بوصفه عن كل صفة من صفات مخلوقاته، كما شاء الله تعالى أن يوصف، وكما علّم أوليائه أن ينعتوه.

الرسالة والنبوة:

وكما حدد الإمام أبعاد التوحيد وحقيقته، أعطى (ع) التحديد الموضوعي الشامل للنبوة والرسالة مبيناً فلسفتها وأهدافها، وموضحاً أن اللطف الإلهي بالعباد اقتضى إرسال الأنبياء (ع) إلى الناس ليأخذوا بأيديهم إلى حيث الهدى والرشاد وسبيل الحق، بعد أن تنكروا لعهد الله إليهم، وخرجوا عن مقتضى الفطرة التي فطرهم الله عليها قال (ع):

(٢) نهج البلاغة رقم ١٨٢.

يتعاوره: تطراً عليه الزيادة والنقصان.

(٢) نفس المصدر والخطبة.

وهم: تفكير وتوهم.

النائل: العطاء.

أين: إشارة للمكان.

«واصطفى سبحانه من ولده - من ولد آدم - أنبياء أخذ على
الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد
الله إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الإنداد معه، واجتالتهم الشياطين
عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم
أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم مني نعمته، ويحتجوا
عليهم بالتبليغ، ويشيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدرة:
من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعاش تحييهم،
وآجال تغنيهم، وأوصا تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل الله
سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة^(١) أو
محجة قائمة. رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين
لهم: من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله: على ذلك
نسلت القرون، ومضت الدهور: وسلفت الأباء وخلفت الأبناء.

إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين، ميثاقه،
مشهورة سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة، وأهواء
منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو
مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانة من
الجهالة...»^(٢).

(١) الميثاق: العهد.

الإنداد: الأمثال وهم المعبودون من دون الله.

اجتالتهم: أبعدتهم عن هدفهم.

واتر: جعل بين كل نبي وآخر فترة.

ليستأدوهم: ليطلبوا الأداء منهم.

وصب: تعب.

(٢) نهج البلاغة رقم النص ١ «باب الخطب».

«بعث الله رسله بما خصهم به من وحيه، وجعلهم حجة له على خلقه، لثلا تجب الحجة لهم بترك الأعذار إليهم، فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق..»^(١).

«فبعث الله محمداً صلى الله عليه وآله بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بينه وأحكمه، ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه، وليقروا به بعد إذ جحدوه وليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته وكيف محق من محق بالمثلث، واحتصد من احتصد بالنقمت..»^(٢).

خط الامامة في دنيا الاسلام:

ويجلى الإمام (ع) حقيقة خط الإمامة وضرورته في دنيا المسلمين ويحدد مرامي الأئمة (ع) ويرشد الأمة المسلمة إليهم باعتبارهم الإمتداد الحقيقي للرسالة، والحملة الحقيقيين لرسالة الله تعالى وهديه للعالمين بعد رسوله (ص)، بهم يقام الحق وتحمى الشريعة ويصان الدين، وتحفظ كلمة الله تعالى.. وتبلغ الأمة الهدى والخير، وبسواهم يكون الضلال والانحراف والضياغ يقول (ع).

= نسلت القرون: تتابعت.

المحجة: الطريق الواضحة المستقيمة.

انجاز عدته: وعده الله تعالى بإرسال محمد (ص).

السمات: العلامات التي بشر بها النبيون السابقون لرسول الله محمد (ص).

ملحد في إسم الله: يخرج به عن حقيقة مسماه.

(١) نفس المصدر نص ١٤٤.

(٢) نفس المصدر رقم ١٤٧.

تجلى: ظهر بآيات لا برؤيته المباشرة.

المثلث: العقوبات.

- « . . لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد ولا يسوي بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً: هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفىء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل إلى منتقله»^(١).

«إن الأئمة من قریش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاية في غيرهم»^(٢).

وبعد هذا التحديد الدقيق للإمامة وللائمة، يحذر (ع) من مغبة نكران الأئمة والتنكر لهم « . . وإنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عبادته، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه . . »^(٣).

ويحذر من مغبة نكرانهم في مسيرة الحياة الإسلامية حيث يوضح بكل جلاء أن الحق لا يحصل بسواهم وأن الهدى لا وجود له إلا بمتابعتهم «فأين تذهبون، وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم، وكيف تعمهون، وبينكم عترة نبيكم، وهم أزمة الحق، وأعلام الدين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم إليهم العطاش . . »^(٤)

(١) خطبة رقم ٢ من نهج البلاغة.

الغالي: المغالي المبالغ الذي يتجاوز الحد في الإفراط.

(٢) نفس المصدر رقم ١٤٤.

(٣) نفس المصدر رقم ١٥٢.

(٤) نهج البلاغة رقم النص ٨٧.

تؤفكون: تصرفون عن الحق.

المنار: جمع منارة.

ثم يشير الإمام (ع) إلى أن خط الإمامة مصاحب لمسيرة الأمة، وأرض الله لا تخلو من حجة من آل محمد (ص) يحمل الهدى للناس:

«إلا أن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء: إذ حوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون»^(١).

ونكتفي بهذه النماذج من الفكر العقائدي الذي طرحه الإمام (ع) في ساحة الفكر الإسلامي، ومن شاء الاستزادة فدونه نهج البلاغة فإنه ينبوع لا ينضب يمد المتتبع بشتى ضروب المعرفة في مضمار العقيدة وسواها.

= يتاه بكم: الحيرة والضلال.

تعمهون: تتحيرون.

العترة: النسل.

ردوهم ورود إليهم العطاش: هلموا إلى بيحار علومهم مسرعين كإسراع الإبل العطش إلى الماء.

(١) نفس المصدر رقم ١٠٠.

خوى نجم: غاب.

طور من الفكر السياسي - الاجتماعي

بالرغم من قصر المدة التي قضاها أمير المؤمنين (ع) في قيادة الأمة اجتماعياً وسياسياً فإن الفكر السياسي الذي طرحه الإمام (ع) كفيل بتغطية حاجات الإنسان عبر امتداده التاريخي على هذه الأرض، فقد جاءت خطب الإمام (ع) ورسائله وأوامره وإرشاداته زاخرة بهذا اللون من الفكر، مجسداً أروع أطروحة وأنضجها لإدارة شؤون الحياة الإنسانية.

ففي الحقل الإقتصادي طرح الإمام (ع) نظاماً متكاملاً لعلاج المشكلة الإقتصادية، وظاهرة الانحراف عن خط العدالة الإسلامية في التوزيع، وحدد برامج واضحة لتجاوز الأخطاء المتراكمة في مسألة توزيع المال بين الناس من خلال منهاج التسوية في العطاء.

ولم يلمس الإمام (ع) المواقف الوعظية في علاج المشكلة الإقتصادية، وإقرار العدالة في المجتمع فحسب وإنما سلك إلى جانب مخاطبة الضمائر والإستفادة من رصيد الإيمان بالله فيها، سلك سبيل استخدام الضوابط القانونية في تحقيق التوازن والعيش الرغيد، وإنهاء دور الظلم في المجتمع ومن أجل ذلك استرد الأموال التي تدفقت

على جيوب فئة من الناس من غير حق، وسلك سبيل مراقبة طرق جباية الأموال، وكيفية توزيعها على قطاعات الأمة، كما شدد على مراقبة ولاته في الأمصار، واستحدث نظام المراقبة والتفتيش ليحيط علماً بتصرفاتهم وممارساتهم ومن هنا تجد الكثير من النصوص التي يوجه فيها الإمام (ع) والياً أو جابياً للمال باتجاه الطريقة المثلى في عمله المناط به، كما نجد نصوصاً يوبخ فيها الإمام (ع) ذلك الوالي أو يستدعيه للحساب أو يعزله عن منصبه لخيانة الأمانة التي أنيطت به^(١).

وكما وضع الإمام (ع) مناهجه القويمة المجسدة لشرع الله تعالى في المال، كذلك فعل بالنسبة للإدارة وشؤون القيادة الأخرى في المجتمع، فبالرغم من كثرة النصوص التي حفظها لنا نهج البلاغة وكتب السيرة الأخرى التي يحدد (ع) فيها مسؤولية الولاة والعمال على البلدان، وما ينبغي أن يلتزموا به في حياتها العملية، يطرح الإمام (ع) المواصفات الواجب توفرها في شخصية الحاكم المسلم سواء أكان حاكماً عاماً للأمة أو حاكماً محلياً، ونكتفي هنا بذكر بعض من هديه بهذا الصدد.

«و . . . وقد علمتهم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم، والأحكام، وإمامة المسلمين: البخيل فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»^(٢).

(١) راجع الحلقة الثانية من هذا الكتاب (الفصل الأول) لملاحظة النصوص بهذا الصدد.

(٢) نهج البلاغة رقم ١٢٩.

«من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»^(١).

«لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع، ولا يتبع المطامع».

وإذا شئنا الرجوع إلى أوسع نص لتحديد مواصفات الحاكم المسلم، ففي عهد الإمام (ع) إلى مالك الأشر حين ولاء على مصر فإن فيه غنى عن طرح أي دليل آخر، حيث اشتمل العهد المذكور على كل مستلزمات القيادة الصالحة، وما ينبغي أن تنهض به من مسؤوليات في حياة الأمة على الصعيد الاجتماعي، والسياسي والإقتصادي، وسوى ذلك من شؤون.

كما حدد العهد بعمق واع كل ما يتطلبه المجتمع وما ينبغي للحاكم المسلم النهوض به عبر مسؤولياته القيادية كي يستجيب لطموحات الأمة التي يدير دفة حياتها^(٢).

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن عهد الإمام (ع) إلى الأشر قد انطوى على أفكار اجتماعية غاية في الأهمية، فقد تناول الإمام (ع)

= النهمة: المبالغة في الحرص وشدة الشهوة.

الحائف: الظالم.

المقاطع: حدود الله.

الدول: المال.

والمراد بالحائف بالدول: الظالم في توزيع المال حيث يفضل قوماً على قوم في العطاء.

(١) نفس المصدر رقم ٧٣ في باب المختار من كلامه (ع).

(٢) يراجع عهد الإمام (ع) إلى مالك الأشر واليه على مصر في نهج البلاغة رقم ٥٣ في باب الكتب.

تركيبية المجتمع، والقوى المؤثرة، والقطاعات الضرورية فيه تناول خبير ملم بها، فقد درس الإمام (ع) أهمية القطاع الزراعي وأثر التجار والقضاة والولاة والجنود في مسيرة المجتمع وبناء الحضارة، وحدد كيفية التعامل مع تلك القوى الهامة في المجتمع، وحدد مسؤوليات السلطة العليا تجاه كل واحدة من تلك القوى الفاعلة في الحياة العامة، كما ذكر القطاعات الضعيفة من أهل اليتيم والشيخوخة وسواهم مما يعتبر وجودهم طبيعياً في المجتمعات، فدرس حالهم وحدد العلاج لما يعانون^(١).

هذا وقد سبق الإمام (ع) علم الاجتماع في دراسته للمجتمع وتحديد المؤثرات فيه بزمان طويل، مما يستحق أن يحمل بجدارة لقب مؤسس علم الاجتماع والواضع للبناته الأولى، مع اختلاف على الرؤية والمنهج.

(١) نفس المصدر

مصنفات الإمام (ع) وأعماله العلمية

وأَمير المؤمنين (ع) أول من صنف في دنيا المسلمين، ويحصى المؤرخون لسيرة الإمام (ع) عدداً من مؤلفات الإمام وأعماله العلمية تأتي في طليعتها.

١ - جمع القرآن الكريم مرتباً حسب النزول، وبين في ذات الوقت عامة، وخاصة، ومطلقة، ومقيدة ومحكمة ومتشابهة وناسخه ومنسوخه، وعزائمه ورخصه، وسننه، وآدابه^(١). كما أشار الإمام (ع) إلى أسباب النزول لآيات الكتاب العزيز، حتى لقد قال ابن سيرين: لو أصبّت ذلك الكتاب لكان فيه العلم^(٢).

وجمع الإمام (ع) للقرآن الكريم على النمط المذكور إنما هو للتفسير أقرب منه للجمع الخالص، فقد أودع عمله ذلك علماً كثيراً، الأمة في ميسر الحاجة إلى مثله.

كما أن أمير المؤمنين (ع) قد تفرغ للعمل الرسالي الكبير، بعد حادثة السقيفة وما تمخض عنها من استخلاف أبي بكر، فعكف (ع)

(١) و (٢) المراجعات / السيد عبد الحسين شرف الدين مراجعة (١١٠) ص ٣٢٤.

على إنجاز المهمة التاريخية في تدوين القرآن في مصحف واحد،
ولقد روى عنه بهذا الصدد قوله:

- «لما قبض رسول الله (ص) أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري
حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن»^(١).

وبمقدور المرء أن يقدر قيمة ذلك العمل إذا وضع نصب عينيه ما
يحظى به القرآن الكريم من قيمة عظيمة في دنيا المسلمين من الوجهة
الفكرية والتشريعية والحضارية.

٢. مصحف فاطمة:

ويبدو أن الإمام (ع) بادر - بعد إنجاز مهمة جمع القرآن إلى تأليف
كتاب لفاطمة الزهراء (ع) صار يعرف عند أبنائها بمصحف فاطمة، وكان
يتضمن مواظ وحكمًا وأمثالًا وعبرًا وأخبارًا وأفكارًا مستقبلية لتكون عونًا
على التخفيف من الآلام التي اكتنفت حياة الزهراء (ع) بعد وفاة أبيها
رسول الله (ص).

٣. الصحيفة:

وهي كتاب في الديات «وهي الأموال المفروضة في الجناية على
النفس أو الطرف أو الجرح أو نحو ذلك وتثبت الدية في موارد الخطأ
المحض أو الشبيه بالعمد أو فيما لا يكون القصاص فيه أو لا
يمكن...»^(٢).

وقد روى البخاري ومسلم من تلك الصحيفة، أوردها ابن سعد في
كتابه الجامع، كما أكثر ابن حنبل الرواية عن هذه الصحيفة.

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ «في المسابقة بالعلم» ج ٢ ص ٤١.

(٢) مباني تكملة المنهاج ج ٢ كتاب الديات / السيد أبو القاسم الخوئي.

٤. الجامعة:

وهي في كتاب صحائف من الجلود، أملاه رسول الله (ص) على أمير المؤمنين (ع) وقد تضمن كل ما يحتاج إليه الناس من حلال وحرام، وقد جاء الكتاب مفصلاً لما جاء في كتاب الله من أحكام وأوامر ونواه. وقد ورث الأئمة من أهل البيت (ع) هذا الكتاب كابراً عن كابر، وكانوا يطلقون عليه تارة إسم الجامعة، وتارة الصحيفة، وأخرى كتاب علي، ورابعة الصحيفة العتيقة.

ووردت عن الصادقين (ع) عدة روايات تؤكد أهمية كتاب الجامعة، وكونه مرجعهم في أخذ التشريع الإلهي، وأنهم لا يحتاجون إلى الناس لوجود ذلك الكتاب، فعن أبي عبد الله الصادق (ع) قال: «أن عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإن الناس ليحتاجون إلينا، وأن عندنا كتاباً أملاه رسول الله (ص) وخطه علي (ع) صحيفة فيها كل حلال وحرام»^(١). ويقول الإمام الصادق (ع) أيضاً يصف فيه الجامعة «تلك صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج، فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلا وهي فيها حتى أرض الخدش»^(٢).

٥. صحيفة القرائن:

ويبدو أن هذه الصحيفة قد دون فيها الإمام (ع) قضاياه في الموارد أو غيرها من أبواب القضاء، ومن المرجح أن تكون هذه الصحيفة بعضاً من الجامعة^(٣).

(١) أصول الكافي ج ١ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف، «الجامعة» (ع).

(٢) الأديم: الجلد.

الفالج: الجمل العظيم ذو السنامين.

والأرض: دية الجراحات.

(٣) عقيدة الشيعة في الإمام الصادق / السيد حسن يوسف مكي العاملي ص ٦٥.

٦. كتاب الجفر:

«وهو لغة جلد الماعز أو البعير أو الثور»:

وقد أطلق إسم الجفر على أحد أبواب العلم الذي دونه الإمام أمير المؤمنين (ع) من أملاء رسول الله (ص) على جلد، ويبدو أن كتاب الجفر غير الجامعة من ناحية الفكر الذي يتضمنه، فالجفر كما تفيد روايات الأئمة من أهل البيت (ع) ينطوي على حوادث المستقبل، وصحف الأنبياء السابقين والكتب المنزلة قبل القرآن الكريم^(١).

وللإمام علي (ع) تصانيف أخرى وذكرها المؤرخون ككتاب زكاة النعم، وكتاب في أبواب الفقه، وكتاب في علوم القرآن وغيرها^(٢).

* * *

المصنفات في تراث الامام الفكري:

وبالرغم من أن الإمام (ع) قد دون عدداً من المؤلفات العظيمة فإنه يبدو أن مؤلفاته قد انصبت على ما قضت به الضرورة من حفظ الرسالة الإلهية وتوضيح معالمها للأجيال من خلال شرح القرآن الكريم، وتبيان بعض مقاصده، أو تحديد بعض أبواب الفقه الإسلامي، أما آراؤه وأفكاره الأخرى التي تحتل مركز الريادة في الفكر الإسلامي، والتي جاءت انعكاساً للرسالة الإلهية على صفحة ذهنه وعقله، فكانت خطباً ومناقشات وحكماء ومواعظ وتوجيهات ونحوها من أدوات التعبير عن ماهية الرسالة، فإن الإمام (ع) لم يتصد لجمعها في تصانيف محددة ومن المؤكد أن يكون جزء كبير منها قد اندرس بيد أن بعضاً من آرائه وأفكاره قد حظي بالتدوين

(١) يراجع أصول الكافي ج ١ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة (ع) وعقيدة الشيعة في الإمام الصادق ص ٦٦.

(٢) أعيان الشيعة ج ٣ ق ٢ باب «مؤلفات أمير المؤمنين (ع)».

بعد زمن طويل من وفاة الإمام (ع) ومن المرجح أن يمثل ذلك البعض نسبة جد قليلة من عطائه الفكري العظيم عبر عمره الشريف.
فقد جمع العلماء بعض ما خلفه الإمام (ع) من مبادئ ومفاهيم في مؤلفات عديدة نذكر منها:

١ - نهج البلاغة، جمعه الشريف أبو الحسن الرضي ابن الحسين الموسوي، المتوفي سنة ٤٠٤ هـ ويشتمل الكتاب على ما اختاره الشريف من خطب الإمام (ع) وكتبه ورسائله وحكمه ومواعظه، وقد اهتم بالكتاب المذكور جل العلماء والمفكرين ورجال الأدب قراءة واستيعاباً وشرحاً، حتى بلغت شروحه خمسين شرحاً ومن أشهر الشراح للنهج: أبو الحسن البيهقي، والإمام فخر الدين الرازي، والقطب الراوندي، ومحمد ميثم البحراني، وعز الدين بن أبي الحديد المدائني، وغيرهم.

ولقد انطوى نهج البلاغة على روائع في الفكر بشتى شعبه ومناحيه:
في العقائد والأخلاق ونظام الحكم وطبيعة المجتمع وعلاقة الإنسان بالله تعالى ونحو ذلك من أبواب.

وهو إلى جانب ذلك جاء آية في الأدب الإنساني الرفيع الذي عز نظيره في أدب اللغة العربية دقة وعمقاً وتصويراً.

٢ - مسنده الذي جمعه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣ هـ وأسماه مسند علي، وقد ضمنه بعض ما أثر عن الإمام (ع) من أحاديث وروايات عن رسول الله (ص).

٣ - غرر الحكم ودرر الكلم، جمعه عبد الواحد بن محمد الأمدي، وهو يشتمل على طائفة من حكم الإمام (ع) القصيرة ويقارب في حجمه نهج البلاغة.

٤ - مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب جمعه أبو

- إسحاق الوطواط الأنصاري ويحتوي على طائفة من حكم الإمام (ع).
- ٥ - مائة كلمة جمعها الجاحظ.
- ٦ - نثر اللاليء جمع أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي صاحب مجمع البيان في تفسير القرآن.
- ٧ - ما اشتمل عليه كتاب صفين لنصر بن مزاحم من خطب الإمام (ع) وكتبه.
- ٨ - جنة الأسماء. شرحه الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ.
- ٩ - مآثر عنه من الأدعية والمناجاة قد طبع بعضه باسم الصحيفة العلوية. جمعها عبد الله بن صالح السماهيجي.
- ١٠ - قلائد الحكم وفرائد الكلم جمع القاضي أبي يوسف الإسفراييني، وغير ذلك من التصانيف^(١).

(١) راجع أعيان الشيعة ق ٢ ج ٣ ص ٢٧٤ ط ٣ - بيروت للسيد محسن الأمين.

انباء المستقبل

والمقصود بها هنا ما تحدث به الإمام (ع) عن أمور مستقبلية وشيكة الوقوع بعد عصره، منها ما يختص بأفراد معينين، ومنها ما يتعلق بمسيرة الأمة المسلمة كمجموع.

وبطبيعة الحال إن ما طرحه الإمام (ع) من هذا القبيل كان قد تلقاه من رسول الله (ص) مباشرة، أو وعاه بنفسه بما أعطاه الله من طاقة روحية هائلة تمنحه القدرة على استقراء المستقبل والإستشراف على حوادثه وقواه المؤثرة، والجوانب الإيجابية فيه والسلبية.

ولقد رأينا في بداية هذا الفصل كيف أن الإمام (ع) يعلن على المنبر مراراً عن قدرته على كشف الكثير من أحداث المستقبل: «... لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا نبأتكم بناعقها وقائدها، وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً ويموت موتاً...»^(١).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٨٦ / والبحار ج ٤٠ ص ١٣٠ عن المنهج.

وإذا تتبعنا الفكر المستقبلي الذي حفظته لنا سيرة أمير المؤمنين (ع) وجدناه - بالرغم من قلته بالقياس إلى غيره من أبواب فكر الإمام (ع) - آية على عظمة الإمام (ع) وسمو كيانه الروحي الذي أهله لمعرفة الكثير من أسرار المستقبل بما فيها من متغيرات في دنيا الأفراد والجماعات.

وهذه جملة مما حفظ لنا المؤرخون في هذا المضمار:

١ - عن سويد بن غفلة أن علياً (ع) خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره، فقال:

- يا أمير المؤمنين، إني مررت بوادي القرى، فوجدت خالد بن عرفطة قد مات، فاستغفر له، فقال (ع):
- والله ما مات، ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة صاحب لوائه حبيب بن حمار.

فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال:

- يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن حمار وإني لك شيعه ومحب، فقال:
أنت حبيب بن حمار؟ قال: نعم.

فقال له ثانية: والله إنك لحبيب بن حمار؟

فقال: أي والله!

فقال (ع): أما والله إنك لحماملها ولتحملنها، ولتدخلن بها من هذا الباب، «وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة» قال ثابت الشمالي - الذي روى الحديث عن سويد بن غفلة.

- فوالله ما مات حتى رأيت ابن زياد، وقد بعث عمر بن سعد إلى (حرب) الحسين بن علي (عليه السلام) وجعل خالد بن عرفطة على

مقدمته، وحبيب بن حمار صاحب رايته فدخل بها من باب الفيل^(١).

٢ - عن إسماعيل بن رجاء قال:

قام أعشى باهلة - وهو غلام يومئذ حدث - إلى علي عليه السلام وهو يخطب ويذكر الملاحم، فقال:

يا أمير المؤمنين، ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة!

فقال علي (ع): إن كنت آثماً فيما قلت يا غلام، فرماك الله بغلام ثقيف، ثم سكت، فقام رجال، فقالوا:

- ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال:

- غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمة إلا انتهكها، يضرب عنق هذا الغلام بسيفه، فقالوا:

- كم يملك يا أمير المؤمنين؟ قال:

- عشرين إن بلغها، قالوا:

- فيقتل قتلاً أم يموت موتاً؟ قال:

- بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريرته لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال إسماعيل بن رجاء - راوي الحديث - فوالله - لقد رأيت بعيني أعشى باهلة، أحضر في جملة الأسرى الذين أسروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجاج (بن يوسف الثقفي) فقرعه، ووبخه واستشده شعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على

(١) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة ج ٢ ص ٢٨٧.

الحرب، ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس^(١).

٣- عن شمير بن سدير الأزدي قال:

قال علي (ع) لعمر بن الحمق الخزاعي.

«يا عمرو إنك لمقتول بعدي وأن رأسك لمنقول وهو أول رأس ينقل في الإسلام، والويل لقاتلك! أما إنك لا تنزل بقوم إلا أسلموك برمتك.

قال الأزدي - راوي الحديث - فوالله ما مضت الأيام حتى تنقل عمرو بن الحمق الخزاعي في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب خائفاً مذعوراً، حتى نزل في قومه من بني خزاعة، فأسلموه، فقتل، وحمل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام، وهو أول رأس حمل في الإسلام من بلد إلى بلد^(٢).

٤- أخبار الإمام (ع) عن الضربة التي يضرب في رأسه فتخضب منها لحيته بسيف ابن ملجم المرادي.

٥- أخباره بامتلاك معاوية لأمر المسلمين بعده.

٦- أخباره عن قتل الإمام الحسين (ع) في كربلاء.

٧- أخبازه عن الحجاج بن يوسف الثقفي وما يكون من فعله.

٨- أخباره عن حركة عبد الله بن الزبير وفشله وقاتله.

٩- وعن هلاك البصرة بالغرق مرة وبسيطرة الزنج عليها أخرى.

١٠- وأخباره عن مقتل محمد صاحب النفس الزكية وأخيه إبراهيم

(١) نفس المصدر ص ٢٨٩.

أعشى باهلة: عامر بن الحارث.

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٠.

بعد ثورتهم على العباسيين في عهد أبي جعفر المنصور.

١١ - وعن قيام الدولة العلوية في المغرب، ودولة بني بويه في العراق.

١٢ - أخباره عبد الله بن العباس عن انتقال الحكم إلى أولاده وقيام الحكم العباسي.

١٣ - وعن خروج الإمام المهدي عجل الله فرجه وقيام دولة الإسلام المباركة^(١).

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن نهج البلاغة ينطوي على الكثير من النصوص التي تناول الإمام (ع) فيها الحديث عن أمور مستقبلية، وقعت بعد عصره، وأخرى نعيش طرفاً منها^(٢).

(١) دراسات في نهج البلاغة - محمد مهدي شمس الدين ط ٢ . ١٩٧٢ ص ١٨٦ وما بعدها. وللاستزادة يراجع فصل المغيبات من نفس الكتاب ج ٢ ص ٢٨٦ وما بعدها من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ط ١ سنة ١٩٥٩.

(٢) مثل خطب الملاحم رقم ١٠١، ١٢٨، ١٣٨، ١٥٠، ١٥٨، ١٨٧ والخطب التي تتحدث عن آخر الزمان مثل ١٠٨، ١٠٣، ١٦٦.

الملاحم: الوقائع العظيمة.

طرف من مواعظ الإمام

وللإمام باع طويل في طرح المواعظ البليغة التي تحمل الحجج البالغة، فتعز السامع والقاريء، وتترك أثراً عظيماً في النفس. والموعظة عند علي (ع) تحمل مفاهيم وعطاء ثراً، تحدد للمسلم طريقة إلى الله وأساليب تفاعله مع رسالة الله تعالى ومع الناس من حوله. وفضلاً عما حمله نهج البلاغة من مواعظ لأمر المؤمنين (ع) فإن كتب الوعظ والإرشاد والتوجيه الإسلامي لا يكاد يخلو منها كتاب من ذكر بعض من مواعظ الإمام (ع). ونذكر هنا طرفاً من مواعظه التي ضمنها نهج البلاغة:

«أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله، فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير، وجوعها طويل. أيها الناس: إنما يجمع الناس الرضى والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى، فقال سبحانه: «ففقروها، فأصبحوا نادمين» فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحمّة في الأرض الخوارة.

أيها الناس، من سلك الطريق الواضح ورد الماء، ومن خالف وقع في التيه»^(١).

- «أيها الناس، إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها اختبرتم، ولغيرها خلقتكم. إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟ لله آباؤكم: فقدموا بعضاً يكن لكم قرصاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم»^(٢).

- «أوصيكم عباد الله بتقوى الله، التي هي الزاد وبها المعاد: زاد مبلغ، ومعاد منجج، دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع، فأسمع داعيها، وفاز داعيها.

عباد الله إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت ليلهم، وأظمأت هواجرهم فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمأ، واستقربوا الأجل فبادروا العمل، وكذبوا

(١) رقم النص ٢٠١ (باب الخطب).

السخط: الغضب.

ثمود: قوم نبي الله صالح (ع).

خارت: من الخوار صوت الثور، أي حين خسف الله أرضهم كان لها صوت كصوت الثور.

السكة المحماة: حديدة المحرات.

الأرض الخوارة: اللينة الهشة.

(٢) نفس المصدر رقم ٢٠٣.

مجاز: ممر إلى الآخرة.

الأمل، فلاحظوا الأجل..»^(١).

(١) نفس المصدر ص ١١٤.
وعاها: فهمها وحفظها.
حمت: منعت، يعني التقوى منعت الأولياء من ارتكاب الجرائم.
الهواجر: الأيام الشديدة الحر ومع شدة حرارتها فقد أظلم المتقون أنفسهم فيها صوماً.
النصب: التعب.

قبس من حكم الإمام

ونختم هذا الفصل بإيراد إضمامة من حكم أمير المؤمنين (ع)
إتماماً للفائدة:

- ١ - إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.
- ٢ - أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.
- ٣ - من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.
- ٤ - ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه.
- ٥ - فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها.
- ٦ - قيمة كل امرئ ما يحسنه.
- ٧ - قال عليه السلام يصف الغوغاء: «هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا».

٨ - عجبت لأقوام يحتمون الطعام مخافة الأذى كيف لا يحتمون الذنوب مخافة النار.

٩ - أربع لو ضربتم فيهن أكباد الإبل، لكان ذلك يسيراً: لا يرجون أحد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي أن يقول لا أعلم إذا هو لم يعلم، ولا يستكبر أن يتعلم إذا لم يعلم.

١٠ - اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم.

١١ - الثناء بأكثر من الإستحقاق ملق^(١). والتقصير عن الإستحقاق في أحسد.

١٢ - عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق خلق البلاء يكون الرخاء.

١٣ - من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ.

١٤ - الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤسهم من روح الله^(٢). ولم يؤمنهم من مكر الله.

١٥ - رب عالم قد قتله جهله، وعلمه معه لا ينفعه.

١٦ - عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينيك.

١٧ - لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث:

(١) ملق: التملق.

العي: المعجز.

(٢) روح الله: لطفه ورأفته.

مكر الله: أخذه للعبد بالعقاب دون شعوره.

نكبته، وغيبته، ووفاته.

١٨ - الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعا ع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

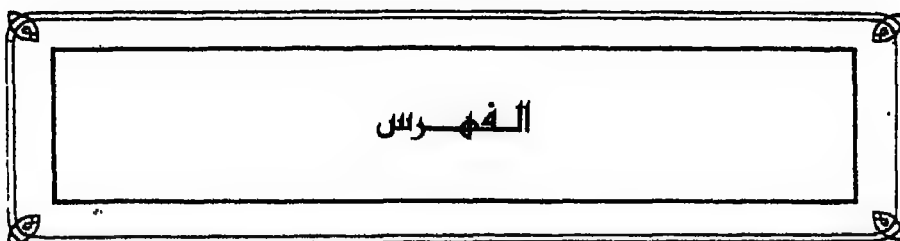
١٩ - الناس أعداء ما جهلوا.

٢٠ - من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها^(١).

وهكذا نصل إلى نهاية المطاف في حديثنا عن المقومات العامة لشخصية أمير المؤمنين علي بن أي طالب عليه السلام. وفقنا الله تعالى للأخذ بنهجه في الفكر والعمل أنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

(تم الكتاب بعونه تعالى)

(١) للمزيد راجع باب المختار من حكم الإمام (ع) في نهج البلاغة، وتحف العقول لابن شعبة الحراني وج ١٩ وج ٢٠ من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وغيرها.



الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
القسم الاول	٩
* بزوغ الفجر	١١
في كفالة رسول الله	١٣
حصيلة الأعداد النبوي	١٤
في كنف الوحي	١٦
* أول المؤمنين	١٩
أول الدعاة	٢١
مواجهة الجاهلين	٢٣
أبو طالب يتصدى لأعداء الرسالة	٢٤
أبو طالب في الحصار مع رسول الله	٢٥
إلى دار الإسلام	٢٨
في فراش رسول الله	٣٠
الإنتظار في قبا	٣١
* مهمات ما بعد الهجرة	٣٣
بأس في الحرب	٣٤

الموضوع	الصفحة
١ - في معركة بدر	٣٤
٣ - في معركة أحد	٣٥
٣ - في غزوة الأحزاب	٣٦
٤ - في غزوة خيبر	٣٨
٥ - في غزوة حُنين	٣٨
* علي في منظار الإسلام	٤١
من فضائل الإمام (ع)	٤٥
* علي في عهد الخلفاء	٤٩
أ - في خلافة أبي بكر	٥٢
ب - في خلافة عمر بن الخطاب	٥٤
ج - في خلافة عثمان بن عفان	٥٨
القسم الثاني	٦٣
مقدمة	٦٥
* الإمام الخليفة	٦٧
* منهاج الإصلاح	٧١
* سياسة رد الفعل	٨٩
* حرب البصرة	٩٧
* حرب صفين	١٠٢
* حرب النهروان	١٠٩
* في ذمة الله	١١٣
القسم الثالث	١١٩
توطئة	١٢١
* شخصية علي (ع) من خلال عناصرها الأساسية	١٣٢
● - علاقة الإمام (ع) بالله تعالى	١٣٥
● - شواهد من عبادة أمير المؤمنين (ع)	١٣٩
● - المنهج العبادي في خطوته الأساسية	١٤٧
* الأخلاق الإجتماعية	١٦١

الموضوع	الصفحة
أولاً : إشاعة العدل الإجتماعي بين الناس	١٦٦
ثانياً : تواضع الإمام	١٧٤
ثالثاً : حلم الإمام	١٧٩
رابعاً : التورع عن البغي	١٨٤
خامساً : شواهد من صبر الإمام	١٨٧
* في حقل المعرفة	١٩٥
❶ - صور من الفكر العقائدي	٢٠٧
❷ - صور من الفكر السياسي	٢١٥
❸ - مصنفات الإمام	٢١٩
❹ - طرق من مواظ الإمام	٢٣١
❺ - قبس من حكم الإمام	٢٣٥
الفهرس	٢٣٩



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina





